

حركات ومذاهب في ميزان الإسلام

بقلم الداعية الدكتور
فتحي يكن

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

المقدمة

اعتزازنا بالإسلام يشتد يوماً بعد يوم... وإيماننا بجدارة هذا الدين لقيادة البشرية في ازدياد مستمر.. وفشل الاتجاهات الزمنية والقيادات السياسية في توفير السعادة والاستقرار للإنسانية المعذبة ليؤكد على الزمن ما ليس بحاجة إلى تأكيد وهو أن المستقبل لهذا الدين...

ولقد شهدت المنطقة العربية خلال ربع القرن الأخير محاولات متلاحقة من التجارب الفاشلة على كل صعيد...

فعلى الصعيد السياسي فشلت الاتجاهات (القومية) في إقامة أي شكل من أشكال الوحدة أو الاتحاد حتى بين قطرين اثنين من الأقطار...

وعلى الصعيد العسكري تسبب هذه الاتجاهات . على الأقل . بهزيمة الخامس من حزيران ويطعن القضية الفلسطينية في الصميم.

وعلى الصعيد الاقتصادي أخفقت النظريات المستوردة . رأسمالية واشتراكية . في إيجاد مجتمع الكفاية والعدل، وتأمين الاستقرار والرفاه لهذا الإنسان في أية بقعة من بقاع العالم.. بل إن هذه المذاهب والنظم الوضعية زادت مشكلات البشرية تعقيداً، ولم تقدم بين يدي تجاربها الكثيرة المتلاحقة تجربة واحدة يمكن اعتبارها ناجحة!!.

فالدول التي تمارس تجارب (التطبيق الماركسي) مثقلة بالأزمات والتناقضات في مجالي التخطيط والتنفيذ وفي كل مجال، فمشكلات التأميم ومشكلات التمويين ومشكلات الغلاء ومشكلات حرب الطبقات وغيرها أصبحت من الظواهر البارزة في تلك المجتمعات...

كذلك الدول التي تمارس تطبيق (النظام الحر) هي الأخرى غارقة في طوفان مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية كمشكلات الاحتكار والبطالة والربا والتسلط الفردي وغير ذلك من المشكلات التي لا حصر لها ولا عد...

ذلك أن هذه المذاهب والنظم الاجتماعية والاقتصادية لم تحاول الارتفاع بحلولها وتصوراتها فوق (الواقع المادي) لأنها جزء منه ومظهر من مظاهره وفاقده الشيء لا يعطيه...

ولا نكون مفتئين أو مبالغين إذا قلنا أن المقاييس التي اعتمدها هذه المذاهب الحديثة . القومية . الرأسمالية . الشيوعية . الاشتراكية . في (تقييمها) للواقع البشري الإنساني ليست بشرية وليست إنسانية... وأمثالها قد يصلح ولكن لمجتمعات (بهيمية) ليست في حاجة أساساً لغير المتطلبات المادية الصرفة... أما أن تكون مرشحة لتنظيم حياة الإنسان ذات المطالب والحاجات والخصائص الفطرية المتعددة فهذا مما لا تستطيعه بحال لأنها تفقد عناصره الأساسية...

إن الإنسان يعاني من خواء روحه أضعاف ما يعاني من خواء بطنه، وإن الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الناجمة عن اهتزاز المثل العليا وانعدام القيم الرفيعة لا تُدانيها أزمات أخرى...

ولقد أصبح مسلماً به أن ما تعاني منه البشرية من مُعضلات ومشكلات ناشئ في الأصل عن انحراف التصور (العقيدي) الكون والإنسان والحياة، وبالتالي عن انعدام الضوابط (الأخلاقية) لدى الإنسان...

إن الإنسان إنسان (بروحه وجسمه) وينبغي أن (يقيم) هكذا روحاً وجسداً غير منفصلين... وينبغي أن يكون منهجه في الحياة كذلك متكاملًا يشبع حاجة البدن كما يشبع حاجة الروح سواء بسواء...

وتحقق هذا التلاحم والتناسق بين متطلبات المادة والروح وحاجات الجسم والنفس موقوف على وجود منهج تتوافر فيه كل الخصائص الإنسانية والفطرية...

والإسلام... المنهج الوحيد الذي (يقيم) الإنسان هذا التقييم الفطري، لاحظ متطلباته النفسية والروحية، وحاجاته العضوية والمادية... وعلى ضوء

هذا التصور والتقييم الدقيق الكلي جاء صياغة المنهج الإسلامي، فكان المنهج الذي يتلاءم مع كل بيئة وعصر...

ومن يوم نُكبت هذه الأمة بغزو الحضارات المادية لأفكارها ومعتقداتها، وباجتياح الفلسفات والمبادئ الوضعية لمفاهيمها وتصوراتها، دهمتها الخطوب والفتن، وعمتها المصائب والمحن فلم تعد تعرف طعم السعادة والاستقرار...

إن الأمة تتحمل كامل المسؤولية أمام الله والتاريخ حين تتخلى عن الإسلام وتتبنى الأفكار والنظم الوضعية الزائفة.

وهذا الكتاب إنما هو محاولة متواضعة لكشف النقاب عن بعض هذه الاتجاهات التي ضللت الأمة ولا تزال تضللها تحت شعارات خادعة كاذبة... إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ {الأنعام: ١٥٣}.

٦ - رجب ١٣٩٠هـ

٦ - أيلول ١٩٧٠م.

المؤلف.



تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

مباحث الكتاب

الشيوعية

الرأسمالية

الماوسونية

القومية السورية

القومية العربية

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

الشيوعية

❖ نشأتها.

❖ النظرية الماركسية.

❖ المادية المنطقية.

❖ الشيوعية قرين الإلحاد.

❖ المادية التاريخية.

❖ الشيوعية قرين الصهيونية.

❖ الشيوعية قرين الاستعمار.

❖ جرثومة فناء الشيوعية.

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فنتحي يكن الفكرية الإنسانية

نشأة الشيوعية:

الشيوعية أشد أنواع الاشتراكية عنفاً، وقد أنشأها (كارل ماركس) اليهودي الذي ولد في ألمانيا عام ١٨١٨، ومات في انكلترا عام ١٨٨٣.

أعلن ماركس عن آرائه الشيوعية عام ١٨٤٧ وكان واثقاً من انهيار النظام الرأسمالي، وأن الهوة سوف تتسع بين العمال وأصحاب العمل، وأن نتيجة ذلك ستكون قيام (دكتاتورية الفقراء)... وقد أعلن ماركس عن آرائه هذه في وثيقة معروفة باسم (مانيفستو الشيوعية).

إن المتتبع لحياة ماركس الخاصة يستطيع أن يتبين بوضوح العوامل التي جعلته لا ينتج غير (الشيوعية) مبدأ للحياة؟؟؟

فالعامل الأول هو فشله في شؤون حياته الخاصة العاطفية ففي عام ١٨٣٦ عقد خطوبته سراً على فتاة من أسرة أرستقراطية وعندما انكشف الأمر للأسرة عارضت مشروع الزواج هذا لاعتبارات (طبعية) فكانت هذه أولى الصدمات النفسية في حياته بل هي أول العوامل التي أذكت في نفسه بواعث الحقد على المجتمع الارستقراطي البرجوازي؟

وفي عام ١٨٣٥ خاض ماركس مبارزة بالسيف في (نادي الشعراء) ببون ضد أحد أعضاء النادي البورجوازيين، فتفوق عليه خصمه وأصابه بجرح في حاجبه... ويبدو أن الطعنة التي وجهها إليه ذلك البرجوازي لم تترك أثراً في الحاجب فحسب، وإنما في أعماق عقله الباطن؟

ثم إن العوز والفاقة، وضيق ذات اليد التي كانت عليها أسرة ماركس، خلقت لديه نقمة عارمة على الأغنياء، والمتمولين وجعلته يردد دائماً مقطوعة لشكسبير يقول فيها:

(أيها الذهب... أيها الذهب الثمين البراق... إنك تصير الأبيض أسوداً، والقبيح جميلاً، والشر خيراً، والعجوز فتياً والجبان بأسلاً. هذه العبودية الحمراء القانية هي تَعْقُدُ الروابط المقدسة وهي تحلّها...).

إن هذه العوامل جميعها تمكّنت أن تفعل في "ماركس" فعلها البالغ يحركها العامل الأكبر (يهوديته) لينتج الشيوعية أو الماركسية^(١).
يضاف إلى ما تقدم أن الشيوعية كانت ردة فعل لطغيان الإقطاع وتسلطه، وللأوضاع الشاذة التي كانت تعيشها أوروبا بوجه عام.. لقد عانى الفلاحون في ذلك الجزء من العالم خلال القرون، السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر من ألوان العذاب ما جعلهم يضرون إلى مجاهل أوروبا وإلى غابات سيبيريا.
كذلك كانت الشيوعية ردة فعل لانحراف الكنيسة عن خطها الأصيل، ووقوفها إلى جانب الحكم (التيوقراطي)^(٢) وتدعيمها لسلطان الطغاة والحكام ودورائها في فلکهم؟؟ مما حمل ماركس على الكفر بكل ما يتصل بالفكرة الدينية والأديان كما سيأتي معنا.

وهكذا أدت العوامل الخاصة في حياة ماركس، بالإضافة إلى العوامل العامة التي كان عليها المجتمع إلى ولادة الشيوعية، التي نعتبرها ردة فعل منحرفة لأوضاع منحرفة، وليست علاجاً نافعاً لانحراف تلك الأوضاع^(٣).

النظرية الماركسية:

تقوم النظرية الماركسية على مبدئين أساسيين هما المادية المنطقية والمادية الديالكتيكية أي على التفسير المادي للتاريخ. ولهذا سميت بالمادية التاريخية، ذلك أنها تنظر إلى المادة على أنها أساس كل أمر في الحياة، وأن البشرية مسيرة في مختلف أطوارها بتأثر المادة فقط..

^١ - راجع كتاب ماركس والخلق لطلال جرجس ص ٢٧-٣٦.
^٢ - الحكم الديني الذي يقوم على الاعتقاد بأن الله قد اختار الملوك مباشرة لحكم الشعب.
^٣ - نشبت الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧ وبعدها تألفت الحكومة برئاسة نيقولاي لينين وأطلق على القرارات اللوائح والسياسات التي وضعها موضع التنفيذ اسم اللينية التي قامت على أصول كارل ماركس. ومات لينين ١٩٢٧م.

المادية المنطقية:

المادية المنطقية تعني أن الحياة كلها مادة، وأنها أي المادة في حالة حركة دائمة وتطور مستمر.. وهذا بالتالي يعني رفض كل العوامل الغيبية التي تؤمن بها الأديان واعتبار المادة الفعل المتحرك الوحيد في هذه الحياة.

إن هذه النظرية (التخريفية) مرفوضة بداهة لاعتبار أن المادة الصماء لا يمكن أن تتحول ذاتياً، وأنه لا بد لها من محول أو عامل خارجي عنها مؤثر فيها... فكما أن الجبال والصخور لم تتحول إلى أبنية، والمعادن المختلفة لم تصبح قطعاً آلية ومعدات ميكانيكية إلا بفعل الإنسان، كذلك فإن المادة بشكل عام ليست العامل في كل شيء لأنها منفعة وليست فاعلة؟

وإذا ثبت أن المادة لا بد لها من قوة فاعلة، وأنها لا يمكن أن تتحرك، أو تتطور تلقائياً من غير مؤثر خارجي.. وأن الإنسان هو هذا المؤثر الخارجي، أصبح الإنسان هو صاحب القيمة الأساسية في الوجود وليس المادة كما تقول الماركسية.

وبالتالي فإن الإنسان والمادة كقوتين مخلوقتين محدودتين تعملان بطرق متقلبة وناقصة . دلالة على نقص ملازم لهما . تؤكدان بمجرد وجودهما وعجزهما ومحدوديتهما وجود قوى غيبية قادرة وراء المادة ووراء الإنسان وفوق المادة وفوق الإنسان.

فالمادة والإنسان مخلوقان، وبالتالي ناقصان وعاجزان، وقابلان للزوال، ويحتاجان إلى خالق وجد قبلهما دون أن يكون محتاجاً إلى غيره وهو (الله) الذي أثبتت وجوده أعماله وخلقته.

الشيوعية قرين الإلحاد:

إن (تقييم) الشيوعية المادية للكون والإنسان والحياة جعلها تنكر وجود الله وتنكر سائر المغيبات الأخرى كالروح والجنة والنار والحساب والعقاب والجنان والملائكة، وإليكم الشواهد على ذلك:

❖ قال ماركس (لا إله والحياة مادة).

❖ قال لينين عام ١٩١٣ (ليس صحيحاً أن الله هو الذي ينظم الأكوان. إنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر عجزه.. ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز).

❖ جاء في خطاب لينين في المؤتمر الروسي عام ١٩٣٠: (إن تهذيب الشبان وتعليمهم يجب أن يتوخى تلقيحهم بالأخلاق الشيوعية ولكن هذه الأخلاق ليست مستمدة من وصايا إلهية لأننا لا نؤمن بالله).

❖ يقول لينين (أن كل فكرة دينية وكل معتقد بالله، لا بل إن مجرد التفكير بالله دناءة كامنة في النفس).

❖ نشرت صحيفة (سوفتسكيا برافدا) عام ١٩٥٤ (أن الاعتقاد بالله هو تراث القدامى الجهلة).

❖ ونشرت عام ١٩٥٨ (أن واجبنا يقضي بأن نوجه حملة كفاح عقائدي صحيحة ضد الدين).

❖ أذاعت محطة إذاعة موسكو في ٣ نيسان ١٩٥٨ ما نصه: (إن جميع الديانات متشابهة من حيث إنها كلها باطلة، كما أن وجود الميول والاتجاهات المختلفة جعل الواحدة منها تطرد الأخرى).

❖ نشرت صحيفة تركمانسكيا اسكرا) في ١ كانون الأول عام ١٩٥٨: "إن العقيدة الدينية الإسلامية هي القوة المظلمة التي لا تزال تفسد العقول وحياة الشعوب وتعيق النمو وتقف كأي حاجز في طريق السعادة والنور والمعرفة. هذا

وإن الطقوس الدينية لا تزال لاصقة ثابتة، كما أن الديانة لم تتوقف عن كونها مادة الأفيون لدى بعض الناس).

❖ ونشرت (باكنسكي بابوشي) في ١٧ كانون الأول ١٩٥٨ (لو كان الله موجوداً لما سمح أن ننبد الدين).

❖ ونشرت صحيفة العلم الأحمر بتاريخ ١ آذار ١٩٥٩: (من الطبيعي أن الصراع بين الإلحاد والإيمان بالله لم ينته بعد، ولا بد من توجيه الجماهير نحو استئصال جذور الإيمان بالخرافات والجن والآلهة بصورة أعمق مما حدث حتى الآن).

❖ وفي برنامج المؤتمر السادس الدولي الشيوعي الذي انعقد في سنة ١٩٢٨ ما يأتي: الحرب ضد الدين . أفيون الشعوب . تشغل مكاناً هاماً بين أعمال الثورة الثقافية، ويلزم أن تستمر هذه الحرب بإصرار وبطريقة منظمة).

وقد روى فريق من المسلمين اللاجئيين من الاتحاد السوفياتي قصصاً مثيرة عن حوادث التعذيب والتجويع والتقتيل التي عانوا منها الأمرين على أيدي السوفييت. . وهم يقولون: (إن عدد مسلمي الاتحاد السوفياتي انخفض خلال الثلاثين سنة الماضية إلى النصف أو أكثر... ويروون أن السوفييت انتهكوا حرمة المساجد، وأعدموا مئات الألوف من المسلمين، وأرسلوا آخرين إلى معسكرات الاعتقال في سبيريا للقضاء على الإسلام في الاتحاد السوفياتي..

ولن ينسى المسلمون ولا ذرايهم، ذلك المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في خوقند سنة ١٩١٧، أي في أوائل الثورة الشيوعية ليطالب بالحكم الذاتي لتركستان. فإذا بالجنود الشيوعيين يغيرون على المدينة غارة وحشية إجرامية ويقتلون آلافاً من مسلمين ويهدمون بيوتهم، ويصادرون أملاكهم وأموالهم، وتقع بعد ذلك المجاعة البشعة التي مات فيها عدد لا يحصى من المسلمين.

فتحي يكن الفكرية الإسلامية

وقد قدرت المصادر الروسية نفسها عدد ضحايا الحكم السوفياتي من المسلمين فيما بين سنتي ١٩١٧ - ١٩١٨ بمليون مسلم^(١) ٩٩.

المادية التاريخية:

المادية التاريخية هي المبدأ الثاني من المبادئ التي تقوم عليها الماركسية.. وهي النظرة التي تدّعي بأن تاريخ الإنسانية ليس سوى مجموعة أعمال وأحداث بشرية كملت وقامت بدوافع مادية بحتة^٩.

يقول ماركس (ليست الأفكار . كما يتردد ذلك أكثر الأحيان . هي التي تقود العامل، بل إن هذه الأفكار ذاتها تتعلق كذلك بالشروط الاقتصادية... ومعنى هذا أنها تتعلق بالمادة التي تفسر التاريخ في نهاية الأمر... إن الاقتصاد الذي يشمل مجموع الجهود الإنسانية في سبيل امتلاك المادة واستخدامها، إنما يشكل النية الأساسية للعلاقات الإنسانية في حين أن المذاهب الفكرية ليست إلا بنية فوقية).

والتصويب المنطقي الذي لفت الإسلام الفكر الإنساني إليه في تصور أسباب التطور، أقرببه (هيغل) في فجر القرن التاسع عشر إقراراً عضوياً حين لم يعتبر الفكر نتاجاً للمادة وانعكاساً لحركتها في دماغ الإنسان. وإنما اعتبر الفكرة المطلقة (الله) صانعة المادة وخالقتها. وهذا ما دفع ماركس إلى أن يهاجم فلسفة هيغل بقوة، فيقول في كتابه (رأس المال): (إن الطريقة الديالكتيكية لا تختلف عن الطريقة الهيجلية من حيث الأساس فحسب بل هي ضدها تماماً. فحركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الواقعية (المادية) منقولة إلى دماغ الإنسان ومستقرة فيه).

والنظرية الشيوعية في تفسيرها المغلوط لأسباب النشوء والتطور تجنح إلى إخضاع الإسلام نفسه لمقاييسها العرجاء. يقول ماركس وانجلز (إن الإسلام

^١ - حقيقة الشيوعية (ص ١٨٦-١٩٨).

كغيره من الأديان ظاهرة تاريخية خاضعة للتطور ومحدودة بالزمن. وظهر الإسلام قائم على أسباب تاريخية واضحة لا تحمل في طياتها أي عنصر غريب أو عجيب).

فإذا سلمنا أن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون التطور المادي المجرد من كل العوامل الغيبية واللبواعث الفكرية والوجدانية والخلقية كما تقول بذلك الشيوعية⁽¹⁾ وأن الشيوعية ستحل محل الرأسمالية، فمعنى هذا أيضاً أن نظاماً آخر سيحل محل الشيوعية في حينه تبعاً للنظرية الديالكتيكية نفسها؟

إنه مما لا شك فيه أن العالم في تطور دائم وتغير مستمر، لا يكاد ينتهي في طور حتى ينتهي إلى صيرورة، وهكذا حتى تنطفئ آخر شعلة للحياة في الكون ويرث الله الأرض ومن عليها.

ونظرة الإسلام إلى الحياة تُسلم بوجود هذا التطور الدائم والتغيير المستمر.. والتطور المنهجي في دعوات الأنبياء منذ الخليقة الأولى حتى الإسلام دليل واضح على التطور الحتمي في حياة البشرية... كل هذا يقرره الإسلام ويثبته ويشير إلى أسبابه ويعلق على نتائجه... لكن الإسلام لا يذهب مذهب الشيوعية في تفسيرها المادي لهذا التطور، بل يجعل للقوى (الغيبية) وللقدرات (الفكرية) ولللبواعث (الأخلاقية) وللمنافسات (المناقبية) الحساب الأقوى والأكبر في تحقيق هذا التطور...

فالإسلام والشيوعية وإن اتفقا شكلاً على حتمية التطور، لكنهما اختلفا أصلاً على أسباب وبواعث هذا التطور فبينما يؤمن الإسلام بإله لهذا الكون يُصرّف فيه كل أمر حسب قانون ارتضاه لعباده، تنكر الشيوعية من ناحية ثانية وجود أي إله لهذا الكون، كما تنكر أي دور لعبه الأنبياء والرسل في

¹ - يقول ستالين في كتابه (المادية الديالكتيكية): "إذا صح أن العالم يتحرك ويتطور دائماً وأبداً، وإذا صح أن اختفاء القديم ونشوء الجديد هما قانون التطور... أصبح من الواضح أن ليست هناك أنظمة اجتماعية ثابتة غير قابلة للتغيير، ولا مبادئ أبدية للملكية الخاصة والاستثمار. وليست هناك أفكار أبدية عن خضوع الفلاحين لكبار ملاكي الأرض والعمال للرأسماليين وبالتالي يمكن أن يحل النظام الاشتراكي محل النظام الرأسمالي كما حل النظام الرأسمالي في حينه محل النظام الإقطاعي).

عملية التطور البشري.. ولقد علق لينين على هيرقليطس الفيلسوف اليوناني حينما قال: "إن العالم لم يخلقه أي إله أو إنسان، وقد كان ولا يزال وسيكون شعلة حية إلى الأبد تشتعل وتنطفئ تبعاً لقوانين معينة" قال لينين: يا له من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية؟.

فالشيوعية تعارض ما تسميه بالمثالية الفلسفية (أي النظرية الغيبية للوجود) من حيث الأساس وعلى خط مستقيم، وتتميز بالخطوط الأساسية التالية:

أولاً: خلافاً (للمثالية) التي تعتبر العالم تجسداً (للفكر المطلق) أو (للعقل الكلي) أو (للوعي) تسيير مادية ماركس الفلسفية على المبدأ القائل إن العالم بطبيعته مادي، وإن حوادث العالم المتعددة هي مظاهر مختلفة للمادية المتحركة. وإن العلاقات المتبادلة بين الحوادث، وتكيف بعضها بعضاً بصورة متبادلة كما تقرها الطريقة الديالكتيكية هي قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة، وإن العالم يتطور تبعاً لقوانين حركة المادة، وهو ليس بحاجة إلى (عقل كلي).

ثانياً: خلافاً (للمثالية) التي تؤكد أن شعورنا وحده هو الموجود واقعاً، وأن العالم المادي والكائن والطبيعة لا توجد في إدراكنا وإحساسنا وتخيلاتنا وتصوراتنا. تقوم المادية الفلسفية الماركسية على مبدأ آخر وهي أن المادة والطبيعة والكائن هي حقيقة موضوعية موجودة خارج الإدراك وبصورة مستقلة عنه، وأن المادة هو عنصر أول لأنها منبع الإحساسات والتصورات والإدراك، بينما الإدراك هو عنصر ثان مشتق، لأنه انعكاس المادة انعكاس الكائن. وإن الفكر وهو نتاج المادة لما بلغت في تطورها درجة عالية من الكمال.

ثالثاً: خلافاً (للمثالية) التي تنكر إمكان معرفة العلم وقوانينه ولا تؤمن بقيمة معارفنا، ولا تعترف بالحقيقة الموضوعية وتعتبر أن العالم مملوء ب(أشياء قائمة بذاتها) ولن يتوصل العلم أبداً إلى معرفتها. تقوم المادية

الفلسفة الماركسية على المبدأ القائل إنه من الممكن تماماً معرفة العالم وقوانينه، وأن معرفتنا لقوانين الطبيعة تلك المعرفة التي يجري اختيارها بالعمل والتجربة هي معرفة ذات قيمة، ولها معنى حقيقة موضوعية، وأن ليس في العالم أشياء لا تمكن معرفتها، وإنما فيه أشياء لا تزال مجهولة بعد، وهي ستُكشف وتصبح معروفة بوسائل العلم والعمل^(١).

وبذلك تكون الشيوعية بتفسيرها المادي للتاريخ قد هبطت بقيمة الإنسان إلى مستوى الحيوانات، وجردته من كل القيم والفضائل والخصائص الإنسانية، وهذا بدون شك مرفوض من الإسلام لأنه (أي الإسلام) كرم الإنسان، وجعل حياته مسرحاً للتنافس على الحق وإشاعته وتحقيقه بين الناس.

وفي نظري أن (الكنيسة) في أوروبا تتحمل مسؤولية ردة الفعل هذه التي أصابت التفكير البشري بداء العداء للدين . كل دين . وفي بروز كل اتجاه مادي متطرف يكفر بالقيم الروحية ويعتبر الدين أفيوناً للشعوب أو عدواً للعلم والتقدم... والشيوعية إحدى هذه الثمار التي تسبب بها خروج الدين في أوروبا عن الإطار الأصيل للمسيحية، وسوء استغلالهم السلطات الزمنية.

والإسلام كدين حين يتعرض اليوم لكثير من المظان من مختلف الاتجاهات المادية فبجيرة ما ارتكبتها الكنيسة من أخطاء شوهدت كل فكرة دينية على الإطلاق.

فالمثالية التي تقصدها الشيوعية إنما هي المثالية الفلسفية التي اعتمدها الكنيسة لانتزاع السلطة الزمنية من الحكام وبسط النفوذ الإكليري وإحكام السيطرة الروحية ومحاربة العلم والعلماء.

أما مثالية الإسلام فإنها لم تُعن بالروح على حساب الجسد والمادة، وإنما برزت مثالية الإسلام في خطة محكمة قوامها صياغة الإنسان في نزعتيه

^١ - المادية الديالكتيكية ص ٢١-٢٧.

الروحية والمادية صياغة قويمه معتدلة لاتفريط فيها ولا إفراط... كذلك كانت مثالية الإسلام غاية في التوافق مع العلم والمعرفة والدعوة إليهما والحض على الاستزادة منهما. هذا فضلاً عن أن محتوى النصرانية غير محتوى الإسلام كما ورد تفصيل ذلك في موضع آخر من هذا الكتاب.

الشيوعية قرين الصهيونية:

إن الممعن في دراسة طبيعة وخصائص وأهداف الحركتين الصهيونية والشيوعية يلمس بوضوح العلاقة الوثيقة القائمة بين هاتين الحركتين، ويبدو له بجلاء القاسم المشترك بينهما سواء في الخصائص أو في الأهداف؟

١ - سيادة العالم

النقطة الأولى من نقاط الالتقاء بين الشيوعية والصهيونية تبدو في نزعة السيادة على العالم واستغلاله وتسخيره لمصالحهما.

فالشيوعية تهدف إلى غزو العالم والسيطرة عليه. وقد كشفت الشيوعية عن هذا الغرض من ظهور بيان "ماركس وإنجلز" المشهور في تاريخ الشيوعية. يقول ماركس (أمامكم العالم وعليكم أن تكسبوه).

كذلك طغت فكرة السيطرة على العالم منذ زمن بعيد على العقلية اليهودية ودونها اليهود في قوانينهم السرية، لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار، وأن بقية الناس قد خُلِقوا لِيُسَخَّرُوا في خدمة بني إسرائيل!

جاء في البروتوكول الخامس من بروتوكولات حكماء صهيون؛ (أننا نقرأ في شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض. وقد منحنا الله العبقرية كي نكون قادرين على القيام بهذا العمل، وسنضع موضع الحكومات القائمة مارداً (Monstor) يسمى إدارة الحكمة العليا: (Adminstration of the supergovernment) وستمتد أيديه كالمخالب الطويلة المدى، وتحت إمرته سيكون له نظام يستحيل معه أن يفشل في إخضاع كل الأقطار).

٢ - نشر الإلحاد

يلاحظ القارئ أن علماء اليهود كذلك يعملون ما في وسعهم لهدم الأديان عن طريق استحداث المذاهب السياسية والفكرية كالشيوعية والوجودية والماسونية ومذهب التطور والسريرية ويقومون على دراسة علم الأديان المقارن لغاية نشر الإلحاد ونسف الإيمان من النفوس. جاء في البروتوكول الرابع عشر (ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان. وإذا تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثارة ملحدين، فلن يدخل هذا في موضوعنا، ولكنه سيضرب مثلاً للأجيال القادمة التي ستصغي إلى تعاليمنا على دين موسى الذي وُكِّلَ إلينا بعقيدته الصارمة واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا)^(١).

٣ - التوصل بالعنف

والملاحظ . كذلك . أن الشيوعية تلتقي مع الصهيونية في التوصل بالعنف والقسوة والوحشية لإقامة سلطانها؟

يقول ستالين، (إنكم لا تستطيعون الهرب من الكوارث الطبيعية كالزلازل والعواصف التي تقتل الملايين، فتقبلونها صاغرين، فكيف لا تقبلون عمليات التطهير التي تقوم بها السلطات الشيوعية للحفاظ على هذا المبدأ الذي سيقدم إليكم الخير...).

كذلك يقول البروتوكول الصهيوني الأول: (يجب أن يكون شعارنا "من وسائل العنف والخديعة". إن القوة المحضة هي المنتصرة في السياسة، وبخاصة إذا كانت مقنعة بالألمعية اللازمة لرجال الدولة. يجب أن يكون العنف هو الأساس) كما يقول البروتوكول السابع: (وبإيجاز، من أجل أن نظهر استعدادنا لجميع الحكومات الأممية في أوروبا، سوف نبين قوتنا لواحدة منها، متوسلين بجرائم العنف. وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب، وإذا اتفقوا جميعاً ضدنا، فعندئذ سنجيبهم بالمدافع الأميركية أو الصينية أو اليابانية).

^١ - الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون لمحمد خليفة التونسي ص ١٨٤.

٤ - التوسل بالخداع وبجميع السوائل المناهضة للأخلاق.

وكما أن الشيوعية تبارك كل أنواع الخداع والغش والاحتيال في سبيل تحقيق المبادئ الشيوعية، يقول لينين: (يجب على المناضل الشيوعي أن يتمرس بشتى ضروب الخداع والغش والتضليل. فالكفاح من أجل الشيوعية يبارك كل وسيلة تحقق الشيوعية. يجب أن يكون مفهوماً أن الشيوعية غاية نبيلة، وأن تحقيق الغاية النبيلة يتطلب في كثير من الأحيان استخدام وسائل غير نبيلة. ولهذا فإن الشيوعية تبارك شتى الوسائل المناهضة للأخلاق ما دامت هذه الوسائل تساعد على تحقيق أهدافنا الشيوعية).

كذلك تفعل الصهيونية حين تقول في البروتوكول الأول: (ويتحتم أن يكون ماكرًا خداعاً حكم تلك الحكومات التي تأبى أن تداس تيجانها تحت أقدام وكلاء (Agent) قوة جديدة. إن هذا الشر هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هدف الخير. ولذلك يتحتم ألا نتردد لحظة واحدة في أعمال الرشوة والخبديعة والخيانة إذا كانت تخدمنا في تحقيق غايتنا) ويقول الدكتور أوسكار ليفي (نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسيديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه).

٥ - تعاطف الحركتين

إن التعاطف العقائدي بين الماركسية الدولية والصهيونية والذي تحول إلى تعاطف سياسي بين اليسار وإسرائيل الأدلة التي تساق في هذا المجال أيضاً...

هذا الكلام نحن لا نقوله افتئاتاً، وإنما نقرر به أمراً بات يقينياً، أكدته مئات الشواهد والمواقف القطعية: فبتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٦٤ أدلى الملحق العسكري السوفياتي في باريس لمراسل صحيفة (معاريف) بتصريح طويل نقتطف منه المقاطع التالية: (لقد أعربنا عن تأييدنا لإسرائيل بالسلاح

والعتاد والرجال في أقصى ظروف الأزمة الفلسطينية. فما قدمناه ونقدمه للبلاد العربية من سلاح هو لأغراض دفاعية لمكافحة الرجعية العربية فقط. ولا يمكن أن نسمح باستعماله للعدوان على إسرائيل فنحن نريد سلامة إسرائيل، بل نعمل من أجل سلامتها... ثم هل تظنون أننا جاهلون لأهمية إسرائيل بالنسبة إلينا؟ وهل تظنوننا لا نعلم ما هو نوع الحكم الاشتراكي السليم الذي تبنيه في إسرائيل بأيديكم؟ وهل من المعقول أن نكون طرفاً في هدم التجربة الاشتراكية التي حققتها إسرائيل؟ وهل تظنون أننا مهملون أهمية الوجود الإسرائيلي في الشرق الأوسط، تلك المنطقة المهمة؟ اطمئنوا.. اطمئنوا... إن الاتحاد السوفياتي مع إسرائيل، وسيؤديها اليوم وغداً كما أيدها ورعاها بالأمس. ونحن نرعى الاشتراكية العربية لأن في ذلك تعزيزاً لمصلحة إسرائيل أيضاً (١٩٩٩)

وبتاريخ الرابع عشر من شباط سنة ١٩٦٥ نشرت صحيفة (هارتس) الإسرائيلية تصريحاً للمستشار الأول في السفارة السوفياتية في إسرائيل نقتطف منه ما يلي: (لم نقدم السلام لبعض الدول العربية إلا بما يكفي لحاجات الدفاع لا الهجوم وعلى الشعب في إسرائيل أن يتذكر أن الاتحاد السوفياتي كان أول من دعا إلى حظر توريد السلاح إلى الشرق العربي عام ١٩٥٧ ونحن مستعدون لحظر السلاح عن المنطقة العربية... لكن حركات التحرير اليسارية في العالم العربي تحتاج إلى السلاح لتكافح الرجعية العربية وتقضي عليها وعلى كل من يساعدها. إن القضاء على الرجعية العربية سيزيل خطر العدوان العربي على إسرائيل لأن الأنظمة والحركات التقدمية اليسارية في البلاد العربية لا تريد العدوان على إسرائيل..).

وبتاريخ الخامس عشر من شباط من عام ١٩٦٨ ألقى ألكسي كوسيجن خطاباً في مدينة (مدينسك) السوفياتية جاء فيه: (نحن لنا أنصار حرب جديدة في الشرق الأوسط، بل على العكس، نريد سلاماً مستقراً في المنطقة،

وهناك بعض الدول العربية تؤيد هذا الموقف. إننا نرفض تصفية إسرائيل، بل نؤيد استمرار إسرائيل كدولة).

٦ - شواهد أخرى

ولم يكن من قبيل المصادفة أن زعيم الشيوعية الأكبر وواضع أسسها هو الحبر الأعظم (كارل ماركس) اليهودي المتعصب؟ وأن أنصار الشيوعية في العالم معظمهم أنصار الصهيونية... وأن المجلس الذي حكم روسيا بعد الثورة الشيوعية عام ١٩١٧ كان بينهم ستة يهود من أصل عشرة أعضاء... وأن صهر (ستالين) (وبريا) الذي كان رئيساً للشرطة السرية، (وشفرنك) رئيس جلسات مجلس السوفيات الأعلى، (واليا أهرنبرخ) لسان حال الكرملين وداعيته المشهور، كلهم يهود؟

وإذا أضفنا إلى ذلك ما نشرته مجلة (أفريكان هيبرو) في عددها الصادر يوم ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠ وهي من كبرى المجلات اليهودية (أن الثورة الشيوعية في روسيا كانت من تصميم اليهود، وأنها قامت نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم، وأن ما تحقق في روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التي خلقت الشيوعية في العالم، ونتيجة لتدبير اليهود، ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم)^(١).

يتأكد لنا بما لا يحتمل الشك أن الشيوعية ربيبة الصهيونية العالمية، وهذا ما نطقت به فقرة من فقرات البروتوكول الثالث لحكام صهيون حيث تقول: (إننا نقصد أن نظهر كما لو كنا المحررين للعمال، جئنا لنحررهم من هذا الظلم، حينما ننصحهم أن يلتحقوا بطبقات جيوشنا من الاشتراكيين والفضويين والشيوعيين. ونحن على الدوام نتبنى الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية. وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية).

^١ - راجع كتاب حقيقة الشيوعية لمجموعة من الكتاب المصريين.

الشيوعية خيانة عظمى وقرين الاستعمار:

وأما أن الشيوعية خيانة عظمى وقرين للاستعمار فلأن الارتباط بها والانتماء إليها إنما هو في الحقيقة ارتباط بكيان أجنبي يضع (المصلحة الشيوعية) فوق المصلحة الوطنية والعربية والإسلامية. وهو بالتالي تكريس لاستعمار جديد تتزعمه (موسكو أو بكين) عوضاً عن (لندن وواشنطن). وهو خروج من منطقة النفوذ (الأنكلوأمريكي) إلى منطقة النفوذ (البلشفي الصيني).

جاء في البيان الشيوعي (ليس للعمال وطن. يا صعاليك. العالم اتحدوا)... وجاء في محاضرة لستالين ألقاها في موسكو عام ١٩٢٤: (إن من واجب الشيوعي في كل الأحوال أن يناضل ضد الوطنية الضيقة وأن لا يحصر نفسه في حركته المحدودة الأفق)^(١)، ويقول: (جورج يمتروف) (الاتحاد السوفياتي هو الوطن الكبير لعمال العالم أجمع). وكتب ماركس (إن العمال في أكثريتهم الساحقة منزهون عن الأوهام القومية، لأن ثقافتهم وحضارتهم في الجوهر إنسانيتان ومعاديتان للقومية)^(٢).

في ضوء هذه الحقائق يتأكد. بما لا يحتمل الشك. أن الشيوعية خيانة عظمى وقرين الاستعمار وتبعية للون جديد من ألوان الاستعمار.. وأن المصلحة الشيوعية التي يقدرها (الكرملين) هي عند الشيوعيين فوق كل مصلحة!!.

جرثومة فناء الشيوعية:

إن نظرة فاحصة عميقة إلى النزاع القائم في دول المعسكر الشيوعي يمكن أن تكون كافية للتأكيد على أن طور الانحدار والانهيار في الفلسفة الماركسية

^١ - القضية الوطنية، تأليف ستالين ص ٣٨.
^٢ - القومية العربية، تأليف عفاق والبيطار ص ٣٥.

قد بدأ، وأن الفكر الشيوعي يعاني أزمة مصيرية حادة قد لا يخرج منها إلا وقد دكت أوصاله وقواعده ولفظ نفسه الأخير.

في أيلول عام ١٩٦١ نشرت جريدة (برافدا) الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي مشروع برنامج جديد للحزب يؤكد للمرة (الثالثة) خروج الحزب على المبادئ الأساسية للماركسية. فقد تضمن المشروع فكرة إلغاء النهج الثوري الذي تعتمده الشيوعية في هدم الكيان الرأسمالي وبناء المجتمع الشيوعي، والذي نصت عليه الفقرة التالية: (وبالتالي فإن الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرير الطبقة العاملة من النير الرأسمالي، يمكن تحقيقها لا بتغييرات بطيئة، ولا بإصلاحات، بل بتغيير كفي للنظام الرأسمالي فقط، أي بالثورة)^(١).

وهذا ما جعل . بكين وموسكو . مسرحاً لمنازعات دموية حادة، لإصرار الحزب الشيوعي الصيني الذي يتزعمه (ماوتسي تونغ) على تنفيذ مبدأ (الحرب الحتمية) بين الشيوعية والرأسمالية.

وفضلاً عن جنوح المنهج الجديد عن فلك النظام الأساسي للحزب الشيوعي، فقد أكد من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعي خلال العشرين سنة المقبلة، على فشل الشيوعية خلال الأربعين سنة الماضية في خلق الأساس المادي والتكنيكي للمجتمع الشيوعي. وها يعني أن الشيوعية كفكرة تفقد القدرة على ما يسمونه بالحتمية التاريخية في الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية. ويعود هذا العجز أساساً إلى أن الشيوعية لا تركز على أصول وقواعد عامة قابلة لاستيعاب مشاكل الحياة المتجددة المتعقدة، مما عرضها إلى كثير من التعديل والتغيير الجزريين في أصولها المنهجية والفكرية في أقل من ربع قرن.

^١ - المادة الديالكتيكية ص ٢٥.

فمبدأ محو (الملكية الفردية) عدل عنه إلى حل وسط، وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة والتجارة الخارجية والمصارف والمشاريع العامة، وترك الصناعات الصغيرة والتجارة الوسطى للسعي الفردي.

كذلك عدل عن مبدأ (توزيع السلع الاستهلاكية) فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوفياتي المعدل عام ١٩٣٦ (من كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل، ومن لا عمل له ليس له الحق أن يأكل) ومرة ثالثة جاء المشروع الجديد عام ١٩٦١ يشير إلى أن الاتحاد السوفياتي سيطبق خلال العشر سنوات الواقعة بين (١٩٧١ - ١٩٨٠) مبدأ التوزيع حسب الحاجة) وبذلك يتراجع الحزب الشيوعي مرة أخرى عن تعديل عام ١٩٣٦.

ومن الأمثلة الحسية التي تساق على اضطراب معايير النهج الشيوعي، إلغاء المزارع الحكومية المعروفة باسم (السوفوكوز) بعد أن ظهر فشلها، وبعد أن كلفت الحكومة مبالغ طائلة من المال. بالإضافة إلى التعديلات الأخرى التي أجريت على المؤسسات الزراعية المعروفة باسم (الكلوكوز).

والحقيقة أن الفكر الشيوعي من يوم ولد كان في وضع لا يسمح له بالحياة والاستمرار إلا بمقدار ما تحميه القوة التي يمتلكها.

هذه الحقيقة أفصحت عن نفسها في كثير من مواقف التأديب والعنف التي وقفها (الكرملين) من عدد من البلدان الاشتراكية في شرق أوروبا، بدعوى خروجها على الخطوط الأساسية (للايديولوجية الشيوعية).

فلقد هز الكرملين في السابق عصاه في وجه (أولبرخت) و (غومولكا) و(المجريين) و(الصينيين).. وفي عهد قريب اجتاحت جيوشه العاصمة التشيكية لتأديب من يعتبر أنهم شقوا عصا الطاعة عليه وصبئوا عن (دين) ماركس ولينين؟.

وإن أشد ما يخشاه (الكرملين) ويخافه أن يفلت الزمام من يده، وتخرج عن طاعته دول الكتلة الشيوعية دول فدولة لا سيما وقد سبق أن أفلتت من قبضته كل من (يوغسلافيا ورومانيا).

والذي يهمنا هنا وفي هذا المقام هو الإشارة إلى أن العامل الأساسي الكامن وراء الأزمات الحادة والمنازعات المتصاعدة بين البلدان الاشتراكية هو أن (الفلسفة الماركسية) كغيرها من المبادئ (الوضعية) خاضعة للتفسيرات والتصورات الشخصية لزعماء الحركة الشيوعية، وهذا ما جعلها تدور خلال نصف قرن من الزمن في دوامة مفرغة من التأويلات الجدلية المتناقضة، مما أدى إلى انفراط وحدة الحركة الفكرية وإلى نشوء مدارس متعددة الفكر الشيوعية (كالينينية . والستالينية . والتروتسكية . والكاستروية . والماوتسية... الخ).

إن بشرية (الفلسفة الماركسية) جعلها تفقد عنصر ديمومتها وبقائها، وجعلها تفقد القدرة على مواجهة مشاكل الحياة، كما جعلها تصطدم بكثير من المبادئ الفطرية وتخرج عن الحقائق الكونية الثابتة..

وحين فشلت (الثورة البلشفية الشيوعية الحمراء) في تحقيق الغاية من قيامها، وغدت (الجنة الموعودة) سجناً رهيباً لا يطاق، وحياة ضنكا ملؤها البؤس والشقاء.. وغدا (السلام والعدالة) شعارات حمراء ملطخة بالدماء، شأنها شأن الشعارات الكاذبة المزيفة التي يرفعها (الغرب) لإخفاء حقيقة ما تغطيه جرائمه وخداع الرأي العام العالمي.. عند ذلك بدا التشقق في (الجسم الشيوعي) وانفجرت في أنحاء القروح وعمت أجزاءه الجيوب والجروح.. وهذه هي النهاية المنتظرة والمصير المحتوم لكل الاتجاهات المادية والأنظمة الوضعية والفلسفات البشرية.

إنه تأكيد على عجز الإنسان وقصوره وحاجته الملحة إلى هدى الله وإلى
شرع الله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ
عَزِيزٌ {الحج:٧٣:٧٤} .



مراجع البحث

- ❖ أصول الفلسفة الماركسية.
- ❖ المادية الديالكتيكية.
- ❖ البيان الشيوعي.
- ❖ هذه هي الديالكتيكية . بول فولكييه.
- ❖ أعرف مذهبك . المارتين دودج .
- ❖ ماركس والخلق . لطال الجرجس .
- ❖ الشيوعية والديمقراطية . إبراهيم حداد .
- ❖ حقائق عن الشيوعية . محمد منير لطفي .
- ❖ حقيقة الشيوعية . لمجموعة من الكتاب .
- ❖ الخطر اليهودي . محمد خليفة التونسي .
- ❖ نقض الاشتراكية الماركسية . غانم عبده .
- ❖ الإسلام في نظر الشيوعية والشيوعيين . ابن حمدون .
- ❖ نهضة الشيوعية الحديثة . ماسيمو سلفادوري .
- ❖ تأملات في فشل الاشتراكية . ماكس ايستمان .
- ❖ أسس اللينينية . ستالين .

الرأسمالية

- ❖ معنى الرأسمالية.
- ❖ قانون البحث عن الربح.
- ❖ قانون المزاخمة.
- ❖ قانون التمرکز على الإنتاج وحصره.
- ❖ قانون السعر المخفض.
- ❖ حکم الإسلام في الرأسمالية.

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

لا تعتبر الرأسمالية مذهباً تعتمد الحكومات بل هي نظام اقتصادي يقوم على أساس تملك الأفراد والشركات لكل وسائل الإنتاج..

يرى (فرنوا يكناي) أحد فلاسفة الفكر الرأسمالي "أنه يجب أن يكون الأفراد أحراراً في العمل، وأن يسيروا وفق مصالحهم الخاصة، وأن يسمح لهم بمزاولة المهن التي يختارونها وأن تترك لهم حرية الانتقال وحرية اجتناء الثروات وحرية التصرف في ممتلكاتهم كما يريدون، ولا يجوز أبداً للدولة أن تتدخل في نشاطاتهم".

ويمكننا أن نلخص أبرز الظواهر التي يتمخض عنها النظام الرأسمالي بما يلي:

أولاً: تملك الأفراد للأرض ولرؤوس الأموال ول منابع الثروات.

ثانياً: تكالب الأفراد في الحصول على الأرباح وابتكار شتى المشروعات والطرق التي تؤدي إلى ذلك ووسائل كانت مشروعات وطرقاً مشروعة أو غير مشروعة.

ثالثاً: العمل على نشر التجارة في أنحاء العالم وما يحققه ذلك من بسط سلطان النفوذ المالي والسياسي على المؤسسات الاقتصادية والحكومية بما يحقق مصالح الدول والمؤسسات الرأسمالية.

ما هي الرأسمالية؟

يقول الأستاذ "أحمد الشبياني" في كتابه (دراسات في العقائد) تحت هذا العنوان (أرى أن الرأسمالية هي المخطط الكامل الذي ابتدعته السلبية في العقل البشري لتنظيم وإدارة وتوجيه الغريزة البشرية في أحط أدوارها

الهمجية. لذلك اعتبر الرأسمالية هي الحيوانية التي ينظمها العقل، إذ أنها تمثل طمعاً واعياً ونهماً يقظاً يعرف أهدافه ويعرف الوسائل التي يسلكها إليها، وشراهة تتغذى بالواقع وتهتدي بنور العقل، وأثرة ضيقة خانقة.. إنها في اختصار أرقى الدرجات التي وصل إليها "العقل الحيواني" في الإنسان).

ففي ظل النظام الرأسمالي تنعدم حتى الفضائل القليلة التي عرفها مجتمع الإقطاع فضائل النخوة والشهامة والفرسية.. لذلك يبلغ في النظام الرأسمالي الصراع بين "العقل الحيواني" و "العقل الإنساني" في الإنسان ذروته. ويتخذ المجتمع من الغابة مظهرها وجوهرها، فلا حياة إلا للأقوى، ولا وجود للضعيف.

أما أم الفضائل ومنبعها في ظل النظام الرأسمالي فهي الريح الريح بأي وسيلة وسبب. والرأسمالية كما سنرى فيما يأتي من بحث لا تتغذى من دماء الشعب فحسب، بل إنما يلتهم الرأسماليون بعضهم بعضاً أيضاً. وللرأسمالية قوانين رهيبة تسير بموجبها وتطبقها على كل نشاطاتها. وهذه القوانين الرهيبة هي:

- ١ - قانون البحث عن الربح.
 - ٢ - قانون المزاحمة والمنافسة.
 - ٣ - قانون التمرکز والقدرة على الإنتاج وحصره.
 - ٤ - قانون السعر المنخفض.
- وسنتناول الآن كل قانون من هذا القوانين على حدة.

١ - قانون البحث عن الربح:

إن هذا القانون يشكل التعارض الجوهرى بين النظام الاشتراكي والنظام الرأسمالي.. فالنظام الاشتراكي يحصر غاياته الاقتصادية في سد احتياجات

البشر، بينما يوجّه النظام الرأسمالي الاقتصاد نحو تحقيق الأرباح واختبائها وتكديسها في صناديق أصحاب المشروعات.

وتبدأ الرأسمالية أو ما تبدأ في تطبيق هذه القوانين على المجتمع الذي تنشأ فيه وتنشط. ويكون أول ضحايا هذا القانون العمال والمستهلكون، إذ أنها تسعى أبداً إلى زيادة أرباحها على حساب الأجور.

ونحن إذا ما عدنا إلى المراحل الأولى من تطور الرأسمالية شاهدنا من الاستغلال البشع الذي كانت الرأسمالية تمارسه ضد العمال، إذ كان هدفها الأساسي يتركز أولاً وأخيراً على ابتزاز أكبر قدر من الساعات الإنتاجية من العمال لقاء أقل قدر ممكن من الأجور..

ووفق هذا القانون، قانون البحث عن الربح، يصبح العامل سلعة خاضعة لقانون العرض والطلب. فليس للأجور حد أدنى أو حد أعلى، وإنما تقرر مستواها حاجة السوق الصناعية أولاً ومقدار عدد العمال ثانياً.

ويدفع قانون البحث عن الربح بالرأسماليين وبالمدول الرأسمالية إلى التفطيش عن المرباح في كل قطر وبلد من أقطار العالم. وكلنا يذكر المآسي الإنسانية التي اقترفها ويقترفها الاستعمار بواسطة نفوذه المالي والتجاري في شتى أقطار الأرض..

٢ - قانون المزاومة:

قلت في مطلع البحث: إن الرأسماليين لا يعيشون على دماء الطبقة العاملة ويتغذون بلحوم سكان المستعمرات بحسب، بل إنهم يلتهمون بعضهم بعضاً أيضاً. فكل مشروع صناعي يجد في مثيله من المشروعات الصناعية منافساً له ومزاحماً، لذلك يسعى بكل ما أوتي من جهد لتصفية هذا المشروع والاستئثار بالزبائن والأسواق. وذلك كله حياً باجتناء الأرباح.

ونحن إذا ما أوردنا أن نفتش عن أسباب جميع الحروب منذ أن عرف التنظيم الرأسمالي للمجتمع والدولة فإننا نرد أسباب كل حرب إلى هذا القانون: قانون المنافسة والمزاومة.

٣ - قانون التمرکز على الإنتاج وحصره:

إن قانون المنافسة الذي يدفع بالشعوب والأمم إلى خوض غمرات الحروب من الرأسمالية الرأسماليين، يدفع أيضاً بالشركات إلى الاضطراع والصراع بعضها ضد بعض. إذ تحاول الشركات الكبرى تصفية الشركات الصغيرة أو المتوسطة، وذلك إما عن طريق ابتلاعها بشراء أكثرية أسهمها، أو عن طريق منافستها منافسة شديدة تؤدي بالتالي إلى إفلاس الشركات الصغيرة أو المتوسطة ومن ثم انهيارها كلياً.

وتلعب المصارف دوراً كبيراً في تحقيق أغراض الشركات الكبرى لتصفية الشركات الصغيرة أو المتوسطة. إذ إن المصارف تعتمد في أوقات الأزمات إلى منع القروض عن الشركات الصغيرة أو المتوسطة، وتقوم بمطالبة هذه الشركات بتسديد ما عليها من ديون، وبهذا تُدفع إلى الإفلاس والانهيار.

٤ - قانون السعر المنخفض:

يقول هذا القانون بالمحافظة على الأرباح مع إنمائها، وذلك عن طريق التوسع الميكانيكي في الإنتاج وتقليص اليد العاملة. أما ما ينشأ عن انخفاض في تكاليف السلعة عن طريق تقليص الأجور الناشئ عن الاستعاضة بالآلة عن العمال، فهو يؤدي إلى تخفيض سعر السلعة على مقادير الأرباح، وبذلك يحافظ الرأسماليون على أرباحهم دون أن يؤثر تخفيض سعر السلعة على مقادير الأرباح التي تدخل عليهم، وهذا كله بسبب أن المشكلة قد حلت عن طريق تقليص اليد العاملة، وبالتالي الانحدار بالتكاليف عن طريق الاستغناء عن دفع الأجور لعمال حلت الآلة محلهم.

حكم الإسلام في الرأسمالية:

إن النظام الرأسمالي يخالف الإسلام من وجوه عدة منها:

١ - إن الإسلام يرفض النظام الرأسمالي أساساً على اعتبار أنه نظام وضعي كما يرفض بالتالي سائر الأنظمة الوضعية... ويعتبر أن (بشرية) النظم الوضعية سبب فشلها وجرثومة فئاتها... كما يعتبر أن كل نظام وضعي إنما هو تناول على حق الله في التشريع، وأن المنهج الوحيد الذي ختم به الرسالات والأديان جميعاً، وأراده منهج حياة للبشرية في كافة العصور إنما هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ..﴾ {آل عمران:١٩}، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ {آل عمران:٨٥}.

٢ - والنظام الرأسمالي حين يقوم على تكوين طبقة في المجتمع تستأثر بتداول المال واستثماره، كما تستأثر بالنفوذ والسلطة إنما يكرس بذلك الطبقيّة والمظالم الاجتماعيّة. وهذا يخالف الإسلام الذي يؤمن بضرورة تقييد الملكية الفردية ومحاربة تكديس الثروات، والذي يضع من التشرييع ما يضمن تفتيتها وتوزيعها على أفضل وجه. ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ {الحشر:٧}، ﴿.. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ {التوبة:٣٤}.

٣ - والنظام الرأسمالي حين يقوم على إطلاق الحرية الشخصية وإباحة الاحتكار، إنما يعمل على إذكاء روح الأنانية الفردية في المجتمع. وهذا يصطدم بالإسلام الذي يحرص أول ما يحرص على تحقيق مصلحة الجماعة ويحرم الإضرار بالمصالح العامة والقاعدة في ذلك (لا ضرر ولا ضرار).

ولذلك يحرم الإسلام الاحتكار واغتصاب حقوق الآخرين وأكل أموالهم بالباطل. وهو بالتالي يعطي الإنسان من الحرية ما يحفظ به التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة.

٤ - والنظام الرأسمالي حين يقوم على إباحة (الربا) الذي هو في الواقع علة العلل في كل ما يشكو منه العالم من اضطراب ومشاكل، والذي يعتبر من النظام الرأسمالي (عموده الفقري) يخالف الإسلام الذي يحرم الربا تحريماً قطعياً. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا نَأْيًا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ {البقرة: ٢٧٥}، وقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ {البقرة: ٢٧٦}، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَأَنْ تَظْلَمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ {البقرة: ٢٧٨-٢٧٩}

٥ - وأخيراً فإن النظام الرأسمالي حين ينظر إلى الإنسان على أنه كائن مادي مجرد من الميول الروحية والأفكار الأخلاقية والغايات المعنوية، وهو حين لا يبالي فيما يجب أن يكون عليه المجتمع من رفعة معنوية وسمو روحي وأخلاقي، إنما يتساوى مع سائر المذاهب المادية الأخرى التي يرفضها الإسلام.



مراجع البحث

◆ اقتصادنا للسيد محمد باقر الصدر.

◆ أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة للمودودي.

- ❖ الإسلام لا رأسمالية ولا اشتراكية . للبهى الخولي .
- ❖ هذه هي الرأسمالية . فرنسوا بيرو .
- ❖ معركة الإسلام والرأسمالية . للشهيد سيد قطب .
- ❖ دراسة في العقائد . لأحمد الشيباني .
- ❖ النظام الاقتصادي في الإسلام . لتقي الدين النبهاني .
- ❖ الإسلام ونظم الحكم المعاصرة . لمحمد البهي .

فتحي يكتنا

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكتنا الفكرية الإنسانية

الماسونية

- ❖ ما هي الماسونية؟
- ❖ نشأة الماسونية.
- ❖ علاقتها بالحركة الصهيونية.
- ❖ موقفها من الدين.
- ❖ الماسونية والخلق.
- ❖ الماسونية تغزو الملوك والرؤساء.
- ❖ الماسونية تغزو الأكليروس.
- ❖ العبرية في الدرجات الماسونية.
- ❖ العبرية في الرموز الماسونية.

ما هي الماسونية؟

الماسونية أو المصونية كما سماها البعض نسبة لصيانة الأسرار، جمعية سرية قديمة لم تعرفها بلاد الإسلام إلا في العصور المتأخرة، آخذة إياها عن البلاد الغربية من إفرنسية وإنكليزية وإيطالية وألمانية وغيرها... إن التوغل في تاريخ الماسونية يستلزم مجلدات ضخمة كلها مأخوذة من كتب الغربيين. أما إذا شاء الباحث التنقيب في كتب العرب وتواريخهم فلا يجد لها ذكراً..

أما فيما كتبه المؤرخون المحدثون فهناك طائفة من المؤلفات والكتب تعرضت للماسونية من جوانب مختلفة، منها المؤيد ومنها المعارض.. وأذكر من هذه الكتب على سبيل المثال:

(تاريخ الماسونية العام) لجرجي زيدان (الآداب الماسونية) لشاهين مكاريوس (شيعية الماسونية) للأباء اليسوعيين (البنية الحرة وروح الماسونية) لأحمد زكي أبو شادي. وغيرها.

والذي يلفت النظر.. ويدعو إلى التساؤل وإمعان الفكر على الدوام أن مصطلح الماسونية وكلماتها وإشاراتنا ورموزها وتعابيرها كلها تقريباً (عبرية اللغة) مما يدل على أن لليهود اليد الطولى في تأسيسها...

نشأة الماسونية:

اختلف المؤرخون في منشأ هذه الحركة.. فمن قائل بحداثتها وإنها لم تدرك ما رواء القرن الثامن عشر الميلادي.. ومنهم من قال إنها انبثقت من جمعية الصليب الوردي التي تأسست عام ١٦١٦ ومنهم من أوصلها إلى الحروب الصليبية.

وزعم آخرون أنها من أيام اليونان القدماء في الجيل الثامن بعد الميلاد...
ومنهم من زعم أنها نشأت في هيكل سليمان.. ومنهم من أوصلها إلى الكهانة
المصرية والهندية وغيرها.. ومنهم من اشتط فقال: إن مؤسسها سيدنا آدم..
والأبلغ من ذلك زعم بعضهم أن الله أسسها في جنة عدن وأن الجنة كانت أول
محفل ماسوني، وأن سيدنا ميكائيل رئيس الملائكة كان أول أستاذ أعظم فيه،
إلى غير ذلك من الهذروالهراء...

والحقيقة أن الماسونية كانت ابتكاراً يهودياً يهدف إلى استقطاب القوى
والامكانات اليهودية الموزعة في أنحاء المعمورة سعياً وراء غايتهم المنشودة وهي
إعادة تأسيس مملكة إسرائيل واستئناف مجد يهوذا الزائل..
وإذا كانت المحافل الشرقية تجهل هذه الحقائق أو تتجاهلها فلقد أكدت
الأحداث وقامت الأدلة بما لا يحتمل الشك على صلة هذه الحركة في
الأساس بالحركة اليهودية..

علاقتها باليهودية.

والدليل الذي لا يقبل الدحض، على صلة اليهودية بالماسونية هذه الفقرات
التي ننقلها من بروتوكولات حكماء صهيون: "والى أن يأتي الوقت الذي نصل
فيه إلى السلطة، سنحاول أن ننشئ ونضاعف خلايا الماسونيين الأحرار في
جميع أنحاء العالم، وسنجذب إليها كل من يصير أو يكون معروفاً بأنه ذورح
عام (Public Spirit) هذه الخلايا ستكون الأماكن الرئيسية التي سنحصل
منها على ما نريد من أخبار كما أنه ستكون أفضل مراكز للدعاية.

وسوف نركز هذه الخلايا تحت قيادة واحدة معروفة لنا وحدنا، وستتألف
هذه القيادة من علمائنا وسيكون لهذه الخلايا ممثلوها الخصوصيون، كي
نحجب المكان الذي تقيم فيه قيادتنا الحقيقية، وسيكون لهذه القيادة وحدها
الحق في تعيين من يتكلم وفي رسم نظام اليوم، وفي هذه الخلافات سنضع

الحبائل والمصائد لكل الإشراكين وطبقات المجتمع الثورية. وإن معظم الخطط السياسية السرية معروفة لنا وسنهددها إلى تنفيذها حالما تُشكل. وكل الوكلاء (Agente) في البوليس الدولي السري تقريباً سيكونون أعضاء في هذه الخلايا.

ولخدمات البوليس أهمية عظيمة لدينا، لأنهم قادرون على أن يلقوا ستاراً على مشروعاتنا، وأن يستنبطوا تفسيرات معقولة للضجر والسخط بين الطوائف، وأن يعاقبوا أيضاً أولئك الذين يرفضون الخضوع لنا. ومعظم الناس الذي يدخلون في الجمعيات مغامرون يرغبون أن يشقوا طريقهم في الحياة بأي كيفية، وليسوا ميالين إلى الجد والعناء.. و بمثل هؤلاء الناس سيكون يسيراً علينا أن نتابع أغراضنا وأن نجعلهم يدفعون جهازنا إلى الحركة.

و حينما تبدأ المؤامرات خلال العام فإن بدءها يعني أن واحداً من أشد وكلائنا إخلاصاً يقوم على رأس هذه المؤامرات. وليس إلا طبيعياً أننا كنا الشعب الوحيد الذي يوجه المشروعات الماسونية. ونحن الشعب الوحيد الذي يعرف أن يوجهها. ونعرف الهدف الأخير لكل عمل على حين أن الأميين (غير اليهود) جاهلون بمعظم الأشياء الخاصة بالماسونية، ولا يستطيعون حتى رؤية النتائج العاجلة لما هم فاعلون...

والأمميون يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية عن فضول محض، أو على أمل نيل نصيبهم من الأشياء الطيبة التي تجري فيها، وبعضهم يغشاها أيضاً لأنه قادر على الثرثرة بأفكاره الحمقاء أمام المحافل. الأمميون (غير اليهود) يبحثون عن عواطف النجاح وتلهيلات الاستحسان ونحن نوزعها جزافاً بلا تحفظ، ولذا نتركهم يظفرون بنجاحهم لكي نوجه لخدمة مصالحنا كل من تمتلكهم مشاعر الغرور ومن يتشربون أفكارنا عن غفلة واثقين بصدق عصمتهم الشخصية. وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمر

الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه
بشخصه، وكيف يسهل . من ناحية أخرى . أن يُثبّط شجاعته وعزيمته بأهون
خيبة ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى
خضوع ذليل^(١) .

ويقول "هرتزل أحد حكماء صيون: (إن المحافل الماسونية المنتشرة في كل
أنحاء العالم تعمل في غفلة . كقناع لأغراضنا . وإن النصرى المنحطين
ليساعدونا على استقلالنا، وإن وكلاءنا . من غير اليهود . ليحققوا لنا
كثيراً من السعادة).

ويقول أيضاً: الماسونية لا يفهما أولئك الخنازير . الماسون غير اليهود .
ولذلك لا يرتابون من مقاصدها لقد أوقعناهم في محافلنا كي نذر الرماد في
عيونهم).

الأهداف القريبة للماسونية:

- الماسونية هي الجمعية التي تعمل في الخفاء للاستيلاء على العالم عن
طريق بث أفكارها، وإن غايتها هي تطعيم أكثر مجموعة من الكتل البشرية
بأفكارنا... وإن تقبل أفكارنا يكون مبعثاً لارتياحنا^(٢) .

إن الماسونية هي سيدة الأحزاب السياسية لا خادمتها^(٣) .

-بعد عشر سنوات سوف تجعل الماسونية سير الأمور حسب مشيئتها دون
أن تلاقى في طريقها مقاومة من أحد^(٤) .

^١ - بروتوكولات حكماء صهيون.

^٢ - مؤتمر الشرق الأعظم الفرنسي سنة ١٩٢٣-٣٤٩.

^٣ - Le Republed Maconidue 3.d.4/1882.

^٤ - نشرة المشرق الأعظم الفرنسية سنة ١٨٩٠ ص ٥٠٠.

-إن الغاية من وجود الماسونية هي النضال ضد الجمعيات المستبدة المنتمية إلى الماضي، ولأجل هذه الغاية يقاتل الماسونيون في الصفوف الأولى، لأنها هي المنظمة الوحيدة التي تناهض الأديان والقوميات والتقاليد^(١).

الأهداف البعيدة للماسونية:

من أسرار اتحادنا هو تأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية خفية^(٢).
إن غاية الماسونية كما أوضحناها قبل نصف قرن هي تأسيس جمهورية ديمقراطية عالمية وهي بذلك تتخذ (الوصولية والنفعية) أساساً للاتحاد الماسوني^(٣).

الماسونية والدين:

يلاحظ أن موقف الماسونية والدين لا يختلف عن موقف الاتجاهات المادية منه... فهي تعمل على إشاعة "اللاتينية" اللادينية وتدعو إلى حرب الأديان بصورة عامة.

ويبدو هذا واضحاً جلياً من كثير من كتب الحركة الماسونية وتصريحات وخطب زعمائها.

ففي مؤتمر الطلاب الذي انعقد في سنة ١٨٦٥ في مدينة "لييج" التي تعتبر إحدى المراكز الماسونية، أعلن الماسوني المشهور "Laf arge" في الطلاب الوافدين من ألمانيا وإسبانيا وروسيا وإنكلترا وفرنسا قائلاً: (يجب أن يتغلب الإنسان على الإله وأن يعلن الحرب عليه وأن يخرق السماوات ويمزقها كالأوراق).

^١ - ملحة إكسايا الماسونية الإيطالية، سنة ١٩٠٤ ص ٢٥٦.

^٢ - البيان الماسوني المؤرخ، ١٧٤٤.

^٣ - Amlable-1889.

إن الإلحاد من عناوين المفاخرة، وليُعش أولئك الأبطال الذين يناضلون في الصفوف الأولى وهم منهمكون في إصلاح الدنيا^(١).

سوف نقوي حرية الضمير في الأفراد بكل ما أوتينا من طاقة وسوف نعلنها حرباً شعواء على العدو الحقيقي للبشرية الذي هو (الدين) وهكذا سوف تنتصر على العقائد الباطلة وعلى أنصارها.

ويجب ألا ننسى بأننا نحن الماسونيين أعداء للأديان، وعلينا ألا نألو جهداً في القضاء على مظاهرها^(٢).

يقول: "يونسان" أحد شيوخ الماسونية في نشرة (العالم الماسوني) سنة ١٨٨١: (إن الواجب علينا أن نسحق القببوح الفظيع، وهذا القببوح إنما هو الله، وهذا الله ليس سوى البشر).

أو كما قال "دلباس" مقدم الشرق الأعظم . سنة ١٩٠١: (إن انتصار الجليلي (يعني عيسى عليه السلام) قد دام عشرين سنة، وها هو ذا قد سقط في حائلنا هذا الإله الكاذب (كذا) ونحن الماسون يسرنا أن نشاهد: سقوط الأنبياء الكذبة فإن الماسونية قد أنشئت لتتصّب الأديان العدا).

هذا هو زعيم الماسونية الفرنسي يقول في النشرة الرسمية: (إننا نحن الماسون لا يمكننا أن نكف عن الحرب بيننا وبين الأديان لأنه لا مناص من ظفرها أو ظفرنا، ولا بد من موتها أو موتنا، فالماسون لا يمكن أن يذوقوا طعم الراحة إلا بعد أن يغلقوا جميع المعابد، ويحولوها هياكل لحرية الفكر ولإله العقل).

وفي عام ١٨٦٦ قالت جريدة الماسون ما يلي: (يجب على الماسون أن يقيموا أنفسهم فوق كل اعتقاد بالله أياً كان).

^١ - المحفل الماسوني الأكبر سنة ١٩٢٢-١٩٨٠..
^٢ - مضابط مؤتمر بلغراد الماسوني سنة ١٩٢١.

الماسونية والخلق:

والحركة الماسونية شأن الحركات الأخرى الوضعية ليس لها ضوابط أخلاقية، بل هي تعمل على العكس في هذا تماماً... فهي تتوسل بالجنس والنساء والخمرة والحفلات الماجنة للإيقاع بالأشخاص واجتذابهم إلى صفوفها:

"بوكة" الماسوني سنة ١٨٧٩: (تأكدوا تماماً أننا لسنان منتصرين على الدين إلا يوم تشاركنا المرأة فتمسي في صفوفنا).

وقال أصحاب مؤتمر بولونيا سنة ١٨٩٩: (يجب علينا أن نسكب المرأة، فأبي يوم تمد إلينا يدها نفوز بالمرام ونبدد جيوش المنتصرين للدين).

وقال: "دور فوبل" أحد شيوخ الماسون: (ليس الزنا باثم في الشريعة الطبيعية، لو بقي البشر على سداجة طبيعتهم لكانت النساء كلهن مشتركات).

وقال "برانمون" في كتابه رسوم إدخال النساء في الماسونية ص ٢٢ و ٢٨٨:
(العضة المطلقة مرذولة عن الماسونيين والماسونيات لأنها ضد اتجاه الطبيعة).

وجاء في نشرة سرية: (ليس من بأس بأن نضحى بالفتيات في سبيل الوطن القومي وماذا عسى أن نضل مع قوم يؤثرون البنات، ويتهافتون عليهن وينقادون لهن؟).

الماسونية تغزو الملوك والرؤساء:

ولقد حرص اليهود منذ أن أنشأوا الحركة الماسونية على الاستفادة منها في التقرب إلى الملوك والحكام والزعماء ورجال الدين والكتاب للاستفادة منهم واستغلالهم وضمان تسخيرهم للمصلحة اليهودية.

وكان لهم ما أرادوا إذ استجاب لهم عدد ضخم من الملوك وحكام العالم..
وحتى يتبين القارئ مدى العلاقات التي أقامتها الحركة الماسونية مع
المشاهير والسياسة في كل زمان ومكان يكفي أن يعرف عدداً من البارزين منهم
في شتى أنحاء المعمورة.

كان منهم (أدوارد ملك إنكلترا عام ١٩٣٥) (اسكندر الثالث ملك
أسكوتلاندا عام ١١٥٠م).

(هنري الثاني ملك إنكلترا عام ١٩٥٥).

(ريكاردوس قلب الأسد عام ١١٦٠م).

(هنري الرابع ملك إنكلترا عام ١٣٩٨).

(هنري الخامس ملك إنكلترا عام ١٤١٣).

(كردينال وولس أستاذ أعظم عام ١٥٠٩م).

(ياكون الفيلسوف الإنكليزي ١٦٢٩).

(جورج الأول ملك إنكلترا عام ١٩١٤)

(صموئيل كلارك فيلسوف إنكليزي عام ١٧٢٩).

(فردريك وليم ولي عهد بروسيا عام ١٧٣٨).

(هريكوت رئيس برلمان باريس عام ١٧٨٥).

(جستاف الثالث ملك أسوج عام ١٧٩٢).

(جورج واشنطن مؤسس جمهورية أميركا عام ١٧٩٩).

(إسكندر أمبراطور روسيا عام ١٨٠٣).

(سان مارتين فيلسوف فرنسي عام ١٨٠٣).

(شارلس ملك أسوج عام ١٨١٠).

(هيغل الفيلسوف الألماني المشهور عام ١٨٣١).

(الملك جورج الخامس ملك إنكلترا)

(فاروق الأول ملك مصر السابق).

(بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية الأسبق)

(سامي الصلح رئيس وزراء لبنان الأسبق).

وهناك عدد كبير من حكام وزعماء العرب الحاليين يُعتبرون من عظام الحركة الماسونية.

الماسونية تتسلل إلى الأكليروس.

ونتيجة للسعي المتواصل الذي قام به الماسونيون لاستغلال رجال السياسة والدين والعلم في العالم في الغايات البعيدة التي يعملون بها... فقد تمكنوا عام ١٦٢٠ من إشراك الأساقفة ورجال الأكليروس معهم، وقلدوهم رئاسة محافلهم... ومنذ ذلك الحين أضيف إلى اسم رئيس المحفل كلمة (محترم) وهو لقب أكليركي لا زال مستعملاً حتى اليوم.. وكانت الأديرة ملجأً للماسونيين في الحروب والثورات.. وفي سنة ٦٨٠ أقيم الأب (ويرال) مفتشاً عاماً للماسون الأحرار في بريطانيا...

وفي سنة ٩٦٠ إزداد إنتشار الماسونية وكانت إذ ذاك برئاسة (بطيريك كنتربري) الذي أصبح بعد ذلك القديس (دنستان) وفي عام ١١٥٥ انتخب الماسون ريكاردوس قلب الأسد . أستاذاً أعظم . للمحافل الماسونية في إنكلترا. وكان أستاذاً أعظم لجماعات (الهيكلين) أيضاً، فقبل الدعوة ودام رئيساً للحركتين حتى توفيه...

ومن أسخف ما يستنتجه (جرجي زيدان) من معاملة "صلاح الدين الأيوبي" الطبية الكريمة لـ "ريكاردوس قلب الأسد" في الحروب الصليبية رغم كونه من أعدائه، أن صلاح الدين كان ماسونياً على حد زعمه... ولقد جهل (تلميذ

المستشرقين) أو تجاهل أن المسلمين في فتوحاتهم كانوا أرحم الناس وأعد لهم مع جميع الشعوب. وإن صلاح الدين لم يكن بحاجة. وقد كفاه الله بالإسلام. إلى الماسونية وأخلاقها... وحسبه موقف رسول الله ﷺ مع خصومه وأعدائه شاهداً على السماحة والرحمة والعدل.

الدرجات الماسونية وكلماتها العبرية:

صنفت الماسونية عضويتها إلى ثلاثة وثلاثين درجة... جعلت لكل درجة شروطاً وأطلقت عليها اسماً. وكتبت درجات الماسونية كلها باللغة العبرية وإليك ما جاء فيها:

الدرجة الأولى: وتسمى درجة التلميذ وفي العبرية (بوعز).

الدرجة الثانية: المعاون وفي العبرية (يافين).

الدرجة الثالثة: الأستاذ وفي العبرية (موابيون. وتوبال قاين).

الدرجة الرابعة: الأستاذ السري وفي العبرية (درازين).

الدرجة الخامسة: الأستاذ الكامل وفي العبرية (يهوفاه).

الدرجة السادسة: الأستاذ الطفيلي وفي العبرية (زبال).

الدرجة السابعة: القاضي وفي العبرية (نينو. حزقيال. حيرام).

الدرجة الثامنة: أستاذ إسرائيل وفي العبرية (حوريم).

الدرجة التاسعة: الأستاذ المنتخب من تسعة وفي العبرية (بيكولهاال شول نيكام) ومعناها انتقام.

الدرجة العاشرة: مختار الخمسة عشر الشهير وفي العبرية (أليكام).

الدرجة الحادية عشرة: الفارس المختار وفي العبرية (استولكين).

الدرجة الثانية عشرة: أستاذ الأعظم البناء وفي العبرية (جاموجور. جاهب.

يهوفاه. جابولون) وبهذه الدرجة يمثلون مجلس الملك سليمان.

الدرجة الرابعة عشرة: الاسكوتلاندي الأعظم وفي العبرية (سليمان - حيرام).

الدرجة الخامسة عشرة: فارس الشرق وفي العبرية (عزريا، يهوذا).

الدرجة السادسة عشرة: أمير أورشليم وفي العبرية (أسريم - أدار - شلاس أسريم) وفيها ذكرى تقديم الشكر لله على تجديد بناء الهيكل، وهذه الذكرى أقامها اليهود يوم ذاك.

وهكذا تتابع الدرجات الماسونية باللغة العبرية حتى الدرجة الثالثة والثلاثين الخاصة بالحاكم المفتش الأعظم العمومي مما يثبت هويتها (اليهودية). والملاحظ أن الدرجات جميعاً لا تمثل إلا ما يرمي إلى هيكل سليمان، وإيقاظ الأفكار وتوجيه المشاعر لإحيائه وبالتالي إقامة المملكة اليهودية..

فاليهود نظراً لضعفهم وقلتهم في البسيطة عمدوا إلى طريقة تساعدهم على تحقيق رغباتهم عن طريق (الأخوة الماسونية) وربط الناس بأقسام وأيمان غموس على مساعدة بعضهم تحت ستار التكاتف البشري والتعاقد الأخوي المزيّف.

فالأمة الإسلامية وهي تواجه في حاضرها معركة مصير مع إسرائيل ووراثها اليهودية العالمية والاستعمار ينبغي أن تطهر مجتمعاتها وصفوفها من كل هذه الحركات والاتجاهات الغربية والمربية حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

مراجع البحث

- ❖ هذه الماسونية (ر. فورستيه) ترجمة بهيج شعبان.
- ❖ أسرار الماسونية . للجنرال جواد رفعت أتلخان.
- ❖ تاريخ الماسونية العام لجرجي زيدان.
- ❖ الآداب الماسونية لشاهين مكاريوس.
- ❖ شيعة الماسونية للأباء اليسوعيين.
- ❖ البناية الحرة وروح الماسونية . لأحمد زكي أبو شادي.

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

القومية السورية

❖ نشأتها

❖ مبادئها الأساسية والإصلاحية.

❖ نقض مفهومها القومي.

❖ نقض مفهومها الديني.

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتنحي يكن الفكرية الإنسانية

نشأة الحزب القومي السوري:

نشأ الحزب القومي السوري في الثلاثينيات من هذا القرن بدعوى محاربة الطائفية والنزعة الانعزالية، فدعا إلى فكرة (القومية السورية) واعتبارها مستقلة عن القومية العربية، واعتبار الوطن السوري هو البيئة التي نشأت فيها الأمة السورية، وأن النهضة السورية القومية تستمد روحها من مواهب الأمة السورية وتاريخها السياسي والقومي، وأن أزهى العصور في تاريخ سوريا هو العصر الفينيقي، في حين تعتبر الفتح الإسلام فتحاً أجنبياً، ولا ترى في التاريخ الإسلامي في سوريا بعد الفتح إلا تاريخاً سورياً خالصاً... فمعاوية أصبح سورياً لإقامته في دمشق عشرين عاماً قبل الخلافة. وأمجاد الأمويين أمجاد سورية. والنزاع بين علي ومعاوية إنما هو في نظر القوميين السوريين نزاع بين القومية السورية والقومية العراقية.

يقول سعادة في كتابه نشوء الأمم (الكتاب الأول):

ولكن معاوية كان قد أصبح ابن محيط غير المحيط العربي فإن العشرين سنة التي قضاها في سورية (سرينته) أو (سورته) وأعطته اتجاهًا جديدًا في الحياة الاجتماعية والسياسية فإن علم الدولة وفن السياسة وعلم الحقوق الدستورية والمدنية والشخصية كانت قد بلغت في سورية أرقى المراتب. فأثرت البيئة الجديدة كثيراً على معاوية وجهازه وبعد نظر سياسي رجّحه على منازعه.

ومن هذا ندرك السر أن معاوية، لا عثمان أسس الدولة الأموية التي طورت الدولة في الإسلام تطوراً خطيراً^(١).

١- نشوء الأمم، لسعادة ص ١٣٤.

المبادئ الأساسية للحركة:

يلخص (سعادة^(١)) مبادئ القومية السورية الاجتماعية بثماني نقاط:

- ١ - سورية للسوريين والسوريون أمة تامة.
 - ٢ - القضية قومية قائمة بنفسها مستقلة كل الاستقلال عن أية قضية أخرى.
 - ٣ - القضية السورية هي الأمة السورية والوطن السوري.
 - ٤ - الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي.
 - ٥ - الوطن السوري هو البيئة التي نشأت فيها الأمة السورية وهي ذات حدود جغرافية تميزها عما سواها، تمتد من جبال طوروس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب إلى الصحراء في الشرق حتى الالتقاء بدجلة.
 - ٦ - الأمة السورية هيئة اجتماعية واحدة.
 - ٧ - تستمد النهضة السورية القومية روحها من مواهب الأمة السورية وتاريخها السياسي والقومي.
 - ٨ - مصلحة سورية فوق كل مصلحة.
- ثم يحدد (سعادة) المبادئ الإصلاحية للحزب القومي السوري في الخمس نقاط التالية:
- ١ - فصل الدين عن الدولة.
 - ٢ - منع رجال الدين من التدخل في الشؤون السياسية والقضائية القومية.

^١ - أنطوان سعادة مؤسس الحزب القومي السوري وواضع معظم كتبه وهي: نشوء الأمم، المحاضرات العشر تعاليم وشروح، الإسلام في رسالته المسحية والمحمدية، أعدم رمياً بالرصاص عام ١٩٤٩..

٣ - إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.

٤ - إلغاء الإقطاع وتنظيم الاقتصاد القومي على أساس الإنتاج، وإنصاف العامل وصيانة مصلحة الأمة والدولة.

٥ - إعداد جيش قوي يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن.

ولنا أن نناقش بعد هذا العرض الموجز لنشأة القومية السورية ومبادئها الأساسية والإصلاحية مدى واقعية هذه الدعوة بناء على العناصر الثلاثة التي يجب توافرها في كل دعوة حتى تكون صالحة للبقاء وهي (الذاتية والتقدمية والشمول).

فما نصيب القومية السورية من هذه العناصر الثلاثة؟

الذاتية في القومية السورية:

تفقد القومية السورية عنصر (الذاتية) في ناحيتين أساسيتين:

الأولى: في فكرتها القومية وفي نظرتها إلى القومية العربية.

الثانية: في نظرتها إلى الدين وموقفها منه^(١).

أما مفهومها القومي واعتبارها السوريين أمة تامة متميزة عن أبناء البلاد العربية كما يتميز الفرنسيون عن الإنكليز والروس عن الألمان، فإنه يصطدم بالشعور (الذاتي) بالواقع الإسلامي أو على الأقل العربي الذي عاشته هذه البلاد أربعة عشر قرناً أي منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم. ونحن حين نفتش في الشعور العميق وفي الإحساس الذي يرتبط بالأباء والأجداد عبر التاريخ، لا نجد أي حنين يهزنا إلى الماضي السحيق الذي يعتز به القوميون السوريون، الماضي الذي يمثله الفينيقيون بوثنيتهم وخمرهم وآلهتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم، والذي أشار إليه (سعادة) وعناه بقوله: (والحقيقة أن من

^١ - راجع ما كتبه المرحوم الدكتور مصطفى السباعي في جريدة الشباب السورية عام ١٩٥٥..

أهم عوامل فقدان الوجدان السوري القومي، أو من عوامل ضعفه، إهمال نفسه الأمة السورية الحقيقية الظاهرة في إنتاج رجالها الفكري والعملي، وفي مآثرها الثقافية، وكاختراع الأحرف الهجائية التي هي أعظم ثروة فكرية ثقافية حدثت في العالم، وإنشاء الشرائع التمدنية الأولى، ناهيك عن آثار الاستعمار. والثقافية السورية المادية الروحية والطابع العمراني الذي نشرته سورية في البحر السوري المعروف في الجغرافية بالمتوسط وبما خلده سوريون عظام (كزينون . وبيار صليبي . ويوحنا فم الذهب . وأفرام . والعمري . وديك الجن الحمصي . والكواكبي . وجبران . وطائفة كبيرة من مشاهير الأعلام قديماً وحديثاً).

أضف إلى ذلك قوادها ومحاربيها الخالدين من (سرجون الكبير) إلى (أسرحدون) و(سنحاريب) و (نبوخذ نصر) و(أشور بانبال) و(تقلاط فلاصر) إلى (جنون الكبير) إلى (هاني بعل) أعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الأمم إلى (يوسف العظمة) الثاوي في ميسلون^(١).

إن الشعور (الذاتي) لدى الأمة يؤكد أن لا شيء يشدها إلى هذا التاريخ وإلى هؤلاء الناس الذي يتحدث عنهم مؤسس القومية السورية. وإنما نجد في النفوس حنيناً يهز الضمائر والعواطف نحو (التاريخ العربي) منذ الفتح الإسلامي لهذه البلاد... فأمجاد الأمويين، وحضارة العباسيين، وأبطالنا الفاتحون، وعباقرتنا المتشرعون، وأباؤنا الخالدون، هم الذين تطرب نفوسنا لذكرياتهم وتاريخهم والحديث عنهم.

ومن العجيب لدى هؤلاء القوميين أن للأرض عندهم تأثيراً بالغاً بحيث تجعل من معاوية (سورياً) لأنه أقام في بلادنا بضعة عشر عاماً، وبحيث تجعل الأرمني الذي يعيش في بلادنا عشر سنوات (سورياً) بروحه وقوميته. ثم ينكرون تأثر العقيدة واللغة والتاريخ المشترك خلال أربعة عشر قرناً.

^١ - المحاضرات العشر في الندوة الثقافية: ص ٨٨ ويلاحظ كيف أغفل سعادة مشاهير وعظماء الإسلام الذين حفل بهم التاريخ، وإنه لإغفال حاقد وليس لإغفال جاهل؟

فالمسيحيون عاشوا في ظل نصرانيتهم عشرين قرناً، والمسلمون عاشوا في ظل إسلامهم أربعة عشر قرناً... والإسلام والنصرانية حرب على الوثنية التي كان عليها (الفيثيقيون) ومع ذلك يرفض القوميون السوريون الاعتراف بهذه الحقائق الدامغة ويصرون على التنكر لهذا الواقع الذي عشنا فيه هذه الأحقاب الطويلة من التاريخ، في الوقت الذي يجعلون للأرض والتراب والجو أثراً سحرياً يحوّل الإنسان خلال فترة وجيزة من قومية إلى قومية ومن تاريخ إلى تاريخ؟

فأي منطق يجيز انتزاع هذا الجزء الذي لا يتجزأ من الوطن العربي ومن العالم الإسلامي والمرتبط بهما ارتباط تاريخ وعقيدة وارتباط آمال وآلام، وارتباط تاريخ وتراث، خلال عشرات القرون، ليربط بواقع ماضٍ ميت لا تشدنا إليه صلة من صلات اللغة والعقيدة والدين والتقاليد والعادات منذ أكثر من ألفي سنة؟

ثم ما هو الحاجز الذي يحجز بيننا نحن اللبنانيين والسوريين والمصريين والحجازيين والمغاربة؟ وما هي هذه الخصائص النفسية والذاتية والإقليمية التي تجعل السوريين أمة تختلف عن أبناء البلاد العربية الأخرى؟
وحسبنا هذا دليلاً على فقدان (الذاتية) في دعوة القومية السورية..

موقفها من الدين:

وأما موقف القومية السورية من الدين فهو دليل أقوى على فقدانها عنصر الذاتية.. فنحن أمة متدينة تدين أغلب جماهيرنا بالإسلام. والإسلام نظام ودولة، ينظم شؤون الحياة دقيقتها وجليلها، وهو واضح الحدود والمعالم والمناهج. دين فيه من المرونة ما يجعله قادراً على استيعاب مشاكل الحياة المتجددة في كل حين.. ولكن دعوة القوميين السوريين لا تنظر إلى الإسلام بهذا المنظار.

فهي تعلن كما جاء في كتاب (نشوء الأمم) لسعادة بأن فكرة الألوهية إنما اخترعها الإنسان يوم كان رازحاً تحت سلطان الخوف والوهم والخرافة، وهو بذلك يذهب إلى ما ذهبت إليه (الفلسفة المادية) التي تنكر وجود الله وعالم ما وراء الطبيعة. يقول سعادة: (كانت مسألة نشوء النوع البشري من المسائل التي شغلت عقل الإنسان منذ ابتداء الإنسان، يشعر بوجوده ويعقل نسبه إلى مظاهر الكون ونسبة هذه المظاهر إليه. فأخذ يتكهن صدوره عن عالم غير هذه الدنيا يعود إليها بعد فناء جسده. ولم يكن هذا التكهن الراقى في التصور مما تنبه له الإنسان كما يتنبه للموجودات الواقعية، بل كان درجة بارزة في سلم ارتقاء الفكر سبقتها درجات من التخرصات الغربية التي ليس هذا البحث مختصاً بها، ولكن لا بد من الإشارة إلى هذه الدرجة لأنها ذات صلة متينة بنشوء الدين وفكرة الله وحكاية لخلق المستقل التي أثرت فينا تأثيراً عظيماً.

في هذه الدرجة نشأت اعتبارات النفس والجسد، ففي الهند اشتقت النفس من النفس، وشاعت في أماكن كثيرة عقيدة لفظ النفس من النفس... حتى إذا بلغ التطور الدينين إلى فكرة الله القادر على كل شيء خالق السماوات والأرض وما عليها، كان ما يشبه البديهي أن يعلل الإنسان نشوء نوعه بخلق مستقل (فجبل الله تراباً ونفخ فيه من روحه نسمة الحياة).

ولم يكن العقل البشري عنده تلك الدرجة من الدقة والتمييز بحيث يحاول الدخول في افتراض وتقرير خلق مركب معقد للإنسان وسلالاته، فلجأ إلى جعل الخلق بسيطاً ومعقولاً بحيث ينطبق على الأمر البسيط، فخلق الله رجلاً واحداً هو (آدم) ثم خلق له امرأة واحدة من ضلعه هي (حواء) وسنة التوالد تكفلت بتعليق تكاثر البشر وانتشارهم في الأرض^(١).

^١ - نشوء الأمم، لسعادة ص ١٩.

يتأكد من ذلك أن النظرية القومية السورية في الكون والإنسان والحياة
نظرية مادية تنكر وجود الله والبعث والرسالات واليوم الآخر وتلتقي مع غيرها
من النظريات المادية الأخرى من حيث الفلسفة الكونية.

من هذا المنطلق (الإلحادي) تنطلق القومية السورية في مواقفها العقائدية
من الفكرة الدينية بشكل عام ومن الإسلام بوجه خاص...

فهي تعلن أن الإسلام دمه جامد، وإنما الذي يجعله متطوراً هم (الخلفاء
والفهاء) كنا... يقول سعادة: (شرع الدولة، شرع الله المنزل على رسوله، فهو
شرع واضح جامد ككل شرع ديني آخر. ولكن الاجتهاد أنقذ الموقف وكان
مفيداً في تطوير الشرع والحقوق)^(١) ويقول: (لم يترك محمد دستوراً للدولة،
فهو قد أتم الدين ولكنه ترك الدولة تهتم بمصيرها. ولما كانت الخلافة أول
وأقوى سلطة في الإسلام خصوصاً في الوجه التنفيذية والإدارية، فقد أصبحت
قبلة أنظار الطامحين إليها)^(٢).

أمر غريب أن يتحدث زعيم القومية السورية عن الإسلام كما نتحدث نحن
عن قبائل (الماوماو). إن مراجعة بسيطة منصفة للتاريخ الإسلامي وللتشريع
الإسلامي تظهر بجلاء بطلان هذه التخريصات التي أطلقها (المستشرقون)
واعتنقها القوميون السوريون..

والقومية السورية تعلن عن مفهوم جديد للإسلام حين تقول (إننا جميعاً
مسلمين ونصارى مسلمون، ومنا من أسلم لله بالحكمة...) ولولا الحياء من
الشعور الملتهب ضد الصهيونية لزدادوا على ذلك (ومنا من أسلم لله بالتوراة!!)
وهكذا يمسخون الإسلام ويتلاعبون بحقائقه ومفاهيمه، وذلك أكبر دليل
على مبلغ احترامهم له وإيمانهم به..

^١ - نشوء الأمم، لسعادة ص ١٣٦.

^٢ - نشوء الأمم، لسعادة ص ١٣٣.

ولقد كشفت الوثائق كذلك فيما كشفت عن اعتقادهم بأن الأنبياء عامة
ومحمد ﷺ خاصة، أرسلوا لأزمانهم فقط، وأن الزعيم سعادة هو نبي هذا
الزمن فلا وجه للمقارنة بينه وبين الأنبياء! وهذا كفر بالأديان الإلهية قاطبة
ودليل آخر على البون الشاسع الذي يفصلهم عن هذه الأمة في عقيدتها
ودياناتها...

فصل الدين عن الدولة:

ومن بديهي القول أن نذكر هنا مناداتهم بفصل الدين عن الدولة وهي
الفكرة (الغريبة المصدر) التي يرفضها الإسلام ابتداءً.

يقول سعادة: (إن أعظم عقبة في سبيل تحقيق وحدتنا القومية وفلاحنا
القومي هي تعلق المؤسسات الدينية بالسلطة الزمنية، وتشبث المراجع الدينية
بوجود كونها مراجع السيادة في الدول.. وقبضها على زمام سلطاتها أو بعض
سلطاتها على الأقل والحقيقة أن معارك التحرر البشري الكبرى كانت تلك
التي قامت بين مصالح الأمم ومصالح المؤسسات الدينية المتشعبة بمبدأ الحق
الإلهي والشرع الإلهي في حكم الشعوب والقضاء فيها... وهو مبدأ خطر
استعبد الشعوب للمؤسسات الدينية استعباداً أرهاقها. هذه هي الوجهة الدنيا
من الدين... هي الوجهة التي كان الدين ولا يزال يصلح لها حين كان
الإنسان لا يزال في طور بربريته أو قريباً منها، أما في عصرنا الثقافى فإنه لم
يعد يصلح)^(١).

والحقيقة أن الإسلام لا يفرق بين شؤون روحية سياسية، وإنما يعمل على أن
تكون شؤون الحياة . كل شؤون الحياة . خاضعة لمنهج الإسلام ولحاكمة
الله... ولأنه ليس في الإسلام ما يسمى برجل دين وآخر برجل سياسة، وليس
فيه كذلك ما يسمى بالإكليروس، كما أنه لم تقم في تاريخ الإسلام منازعات

^١ - المحاضرات العشر، لسعادة ص ١٠٠-١٠٣.

بين سلطات دينية وأخرى زمنية كما حدث في أوروبا. ذلك أن الإسلام في محتواه يختلف اختلافاً كلياً عن محتوى (النصرانية)، وقد ورد بيان ذلك بتفصيل في موضوع آخر من هذا الكتاب.

محاربة فكرة التجمع على أساس ديني:

ويتحامل القوميون السوريون على الأصرة الدينية وعلى كل تجمع يقوم على أساس من الدين ويعتبرون ذلك من أخطر العقبات في سبيل التقدم ولذلك فهم يعملون على محاربتها حتى يسلم عند حد قولهم الكيان السوري القومي من التناقضات، وحتى تكون التبعية فيه والولاء الوحيدين تبعية وولاء قوميين ليس إلا..

يقول سعادة: (إن فكرة الجامعة الدينية السياسية منافية للقومية عموماً وللقومية السورية خصوصاً. فتمسك السوريين المسيحيين بالجامعة الدينية يجعل منهم مجموعة ذا مصلحة متضاربة مع مصالح مجاميع دينية أخرى ضمن الوطن، ويعرض مصالحه للذويان في مصالح الأقوام الذين تربطهم بهم رابطة الدين (كالفرنسين والطلين وغيرهم...)... كذلك تشبث السوريين المحمديين بالجامعة الدينية يعرض مصالحهم للتضارب مع أبناء وطنهم الذين هم من غير دينهم، وللتلاشي في مصالح الجامعة الإسلامية الكبرى..

لا يمكن أن تتأسس دولة قومية بالمعنى الصحيح على الدين. لذلك نرى أن أكبر جامعتين دينيتين في العالم (المسيحية والمحمدية) لم تنجحا بصفة كونهما جامعتين مدنيتين سياسيتين، كما نجحتا بصفة كونهما جامعتين روحيتين ثقافيتين. إن الجامعة الدينية الروحية لا خطر منها ولا خوف عليها، أما الجامعة الدينية المدنية السياسية فتجلب خطراً كبيراً على الأمم والقوميات ومصالح الشعوب⁽¹⁾.

¹ - المحاضرات العشر، لسعادة ص ١٠٣-١٠٥.

وبهذا تفقد القومية السورية أبرز عناصر الواقعية في الدعوات حين نلتمس آثارها في نفوسنا فلا نجد لها إلا صداً وإعراضاً واستنكاراً^{٩٩}.

الانعزالية في القومية السورية:

قد تكون القومية السورية في مبادئها الاقتصادية مع مخالفتنا لها في حدود التقدمية التي تنادي بها، ولكنها في تحديدها للوطن السوري وتضييقها مدى حيوية الأمة وإمكانياتها تغدو دعوة (انعزالية) تعود بنا القهقري إلى عصر الجمهوريات اليونانية حين كانت كل مدينة جمهورية قائمة بذاتها لها نظمها وقوانينها.. فهي تريد أن تمسح عالمنا العربي والإسلام الكبير إلى عالم صغير محدود في عصر يتميز بأنه عصر الانطلاق الواسع نحو التعاون الفكري والسياسي بأوسع حدود.

ففي عصر التكتلات العالمية والمعسكرات الدولية والتجمعات الأممية تقوم دعوة القوميين السوريين لتعزلنا عن مجموعتنا الكبرى التي يمكن أن تصبح القوة الثالثة في العالم، لنعيش في حدود اقل رفعة من أصغر ولاية في أميركا مثلاً..

وهكذا تعود بنا القومية السورية القهقري إلى حيث انكماش الأمم الصغيرة داخل حدود وهمية، إن كانت في الماضي تدفع عنها الأذى، فهي اليوم تقتلنا في كل مجالات النشاط الإنساني والسياسي والاجتماعي^{٩٩}.

الميكافيلية في القومية السورية:

ثم إن عدم اهتمام القومية السورية بالمبادئ الأخلاقية التي تنادي بها شرائع الله والنظريات الأخلاقية العالمية يجعلها دعوة (ميكافيلية) الأسلوب، مادية النزعة، مستهترة بالقيم الروحية والأخلاقية، كما نشاهد آثار ذلك في الفرص التي تهيئها لإغراء الشباب والفتيات بالانضمام إليها في حلقات

ماجنة تلعب الخمرة فيها بالرؤوس وتنطلق فيها الغرائز جامحة مسترسلة لا تقف عند حدود الشرائع والآداب...

إن القومية السورية حين يقتصر إصلاحها المزعوم على جمع شتات السوريين وجعلهم أمة قوية دون أن تعنى بالإصلاح الأخلاقي الذي لا تنهض أمة بدونه، ولا تستقيم نهضة إلا على أساس قوي من مبادئه، تكون قاصرة غير شاملة، وميكافيلية غير أخلاقية.

مواقفها السياسية:

أما المواقف التي وقفتها القومية السورية من الغرب وتأبيده لإسرائيل، ومن الغرب وتأبيده لتركيا في إسكندرونة، ومن الغرب في أفريقيا وآسيا بوجه عام، ومن الثورة اللبنانية عام ١٩٥٨ فإنها تقطع بأن القومية السورية تضع ولاءها للغرب ولدولة فوق ولائها لسوريا نفسها. مما يحمل على الاعتقاد بأن فكرة (القومية السورية) من أساسها ليست سوى (تجربة غربية) لنظرية الوحدة الجغرافية في الشرق...

وبهذا التحليل السريع للقومية السورية لا نتردد في الحكم على هذه الدعوة بأنها دعوة عرجاء هوجاء، إن كتب لها الحياة يوماً فصي غفلة المجتمع، واضطراب الدولة وفوضى التوجه وانعدام التنظيم الحركي السليم...



تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية

مراجع البحث

- ❖ نشوء الأمم . الكتاب الأول . سعادة .
- ❖ سعادة والحزب القومي . عن مجلة الدنيا الدمشقية .
- ❖ في القومية العربية . لعبد اللطيف شرارة .
- ❖ العروبة بين دعائها ومعارضيتها . لساطع الحصري .
- ❖ المحاضرات العشر في الندوة الثقافية . لسعادة .
- ❖ الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية . لسعادة .
- ❖ مقالات للمرحوم مصطفى السباعي في جريدة الشهاب الدمشقية عام ١٩٥٥ .
- ❖ تعاليم وشروح في العقيدة القومية الاجتماعية . لسعادة .



القومية العربية

- ❖ تعريف القومية.
- ❖ موقفها من الدين.
- ❖ خصائصها (في الطور الأول).
- ❖ اللغة.
- ❖ التاريخ.
- ❖ الأرض.
- ❖ المصلحة المشتركة.
- ❖ القومية العربية في (طورها الماركسي).
- ❖ القومية العربية والمعنى التعصبي.

تعريف القومية:

إن فكرة القومية قديمة قدم الاجتماع البشري، ولكنها كانت تسمى قديماً "العصبية" فالعصبية التي كانت تجمع أفراد القبيلة الواحدة هي التي في الواقع "القومية".

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقف على تعريف واحد ثابت بالنسبة للقومية العربية بين جمهرة الفرق التي نادى بها، وقد لا يكون هذا بالغريب طالما أنها (أي القومية) لم تكن سوى عدوى انتقلت إلينا من بلاد غريبة عنا.

لقد كان اضطراب التفسير القومي لدى فلاسفة أوروبا السبب في الاختلاف الذي وقع به دعاة القومية في بلادنا، ففي الوقت الذي نرى فيه القومية الألمانية تقوم على أساس "العرق الآري الممتاز" وأن ألمانيا فوق الجميع تجد "ماتزيني" في الناحية الأخرى يقول: "الحق أننا لا نستطيع أن نجد في بقعة واحدة من بقاع أوروبا شعباً نقياً خالصاً لم يمتزج بسلالات شعبية أخرى" وهذا ما ينطبق به واقع الشعب الفرنسي الذي يتألف من مزيج من الألماني والسيلينيين والرومان.

ومن ثم لو تتبعنا تاريخ القومية الألمانية التي ظهرت في ألمانيا قبل عام 1870 لوجدنا أنها خطت بعض الخطوات الأولية في سبيل تدعيم الوحدة الألمانية، يوم أن كانت ألمانيا منقسمة إلى دول ودويلات يزد عددها على الثلاثمائة حتى مطلع القرن الثالث عشر. ولكن ما أن تتعاقب بنا السنون حتى نجد أن هذه الوحدة التي بدت متماسكة قوية، وقد بدأت تشمخ بأنفها في زهو وخيلاء من تأثير خمرة - العرق الآري الممتاز - وإذا بهذا الجبار العنيد يتداعى ويهوي ولا يبقى منه سوى ذكريات يتناقلها الكتاب والمؤرخون.

فالقومية إذن ليست سوى كيان فارغ يحتاج إلى إملاء... وليست إلا عاطفة
جياشة بحاجة إلى دعائم فكرية قوية وفلسفة منطقية معينة.

دعاة القومية والدين:

ودعاة القومية العربية وإن كانوا مختلفين متناقضين في تعريف القومية
العربية، إلا أنهم متفقون تمام الاتفاق في موقفهم من الدين بشكل عام ومن
(الإسلام) بصورة خاصة...

فهم ينادون بفصل الدين عن الدولة... ويعتبرون الدعوة إليه دعوة رجعية..
ويحصرّون على علمنة الدولة وعلمنة قوانينها كل ذلك تقليداً وانسياقاً مع
الخط الذي سلكته الحركات القومية في أوروبا وبخاصة الثورة الفرنسية...

فهل جهل دعاة القومية العربية أن الجماهير كانت محقة في خروجها
على الكنيسة ومطالبتها بإقصاء رجال الدين عن المسرح السياسي بعد أن
ذاقت من هؤلاء الأمرين؟ إن الظلم والقتل والشنق كانت من الوسائل التي
لجأت إليها الكنيسة لتدعيم سلطانها الذي بدأ يتصدع تحت مطارق التحرير.

كانت أوروبا قبل دخول المسيحية إليها مسرحاً لضراوة البشر وتنمرهم
وتفلتهم من الحضيرة الإنسانية. لم تكن هناك قوانين تصور حرية الأفراد بل
كانت القوة هي القانون الذي يستطيع أن يفرض نفسه بنفسه، ولم تكن
هنالك مقاييس أخلاقية تحفظ للإنسان طبيعته الإنسانية... ولكن الإنسان
خرج عن كونه الخلاق المبدعة المترفعة إلى حياة أشبه بحياة الغاب
وكونية أقرب إلى كونية الحيوان.

في مثل هذه الظروف... دخلت المسيحية أوروبا تتقدمها ترانيم المحبة
وتراتيل السلام... فكان من الطبيعي أن يحصل الصدام والشقاق. إذ كيف
لتعاليم المسيح القائلة: (من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأيسر)
(ومن سخرك ميلاً فامش معه ميلين) (ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك

فاخلع له الرداء أيضاً) كيف لهذه التعاليم السمحة الرقيقة أن تجد لها قبولاً في نفوس طال عليها الأمد فقسست وتحجرت. إن هذا بالأمر المحال. ولذلك لزم رجال الدين كنيستهم يضربون أخماساً بأسداس.

يقول سيد قطب في كتابه "العدالة الاجتماعية": (ولكن رجال الدين من القساوسة والكرادلة والبابوات لا يستطيعون أن يضمنوا مصالحهم، ولا أن يحافظوا على نفوذهم إذا بقيت الكنيسة في عزلة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فلا بد إذن أن تكون للكنيسة سلطة تقابل سلطة الملوك والأمراء. ولا بد أن تشغل سلطانها الروحي في ميدان الحياة العامة. وجاءت عصور كانت للكنيسة أملاك وجيوش وسلطان لا تقل عن أملاك الملوك وجيوشهم وسلطانهم. ووقع النزاع. كما لا بد أن يقع. بين الكنيسة والسلطة، بين البابوات والأباطرة وكان الدهماء في الغالب في صف الكنيسة. ثم وقع الوفاق. كما لا بد أن يقع. بين هاتين السلطتين، لالتقاء مصلحتيهما في تسخير الجماهير واستغلال الدهماء ما دامت مادية واقتصادية في حقيقتها وما دام النزاع في أصله على السلطة الزمنية).

ولكن وعي الأحرار واستيقاظ الجماهير كان أقوى من أن تقف في سبيله جيوش أو تتنيه عن عزمه سجون ومحاكم تفتيش. بل إن وسائل العنف غالباً ما تزيد النار تأججاً والثورة غلياناً. هذا ما حدث فعلاً في تلك الفترة المظلمة. وما لبثت براكين الثورة أن تفجرت في كل مكان ناقمة مرعدة. ويُسدل الستار بعد جسيم المآسي عن انهزام الدين (برجال الدين) وانتصار الجماهير الشعبية. ويعود جبار الكنيسة إلى قمقمه بعد أن دكت صروح قوته، وزلزلت أركان سطوته، يعود ليندب حظه الضائع ومجده التليد، بينما يتقدم الشعب المتحرر متنمراً من خمرة النصر. عام ١٩٧٩

من هنا تكونت فكرة فصل الدين عن الدولة.. وأن ما لقيصر لقيصر وما لله لله. ومن هنا انطلقت أصوات الشباب عندنا مرجعة أصداء الصراع البعيد الذي نشب بين المسيحية وبين النهضة الفكرية في فرنسا.

ولكن تاريخ الإسلام لا يشهد قط أي صراع حدث بين رجال الدين ورجال الحكم... إذ لم يكن في الإسلام أصلاً فئة مميزة تدعى . رجال دين . والإسلام يعتبر كل فرد من أفرادهِ رجل دين إن تحققت في نفسه وسلوكه تعاليم الدين. كما أن الإسلام لا يفرق في الوقت نفسه الدين كعبادة والدولة كحكم بل يجعلهما سبباً لعلّة واحدة وهي إظهار الحق. وأنت ترى ذلك واضحاً في آيات كثيرة من القرآن قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ {الحج: ٤١} فلزوم التمكين في الأرض بالحكم والسلطان والدولة غايته إقامة أمر الله والعكس بالعكس.

ولقد ظهرت هذه الصورة واضحة خلال حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام. فكانوا رجال حرب ومحراب في وقت واحد يؤمنون الناس في مساجدهم ويقودونهم في حربهم ونزالهم. وبذلك ينعدم النزاع بين رجال الدين وبين رجال الحكم في الإسلام بانعدام أسبابه ويخلو واقعه من هيئة أكليروس.

وهذا لا يعني أن الحكام هم المتصرفون بأمرهم في الإسلام وليس لأحد من سلطان عليهم!. فتاريخ البشرية لم يشهد يوماً حرية أفراد في ظل حكومات كما شهدها في ظل الدولة الإسلامية فكان الأعرابي النكرة يأتي إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من دان له ملك فارس والروم، ليقول له : (والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا) فالإسلام ترك للشعب حق محاسبة الحكام.. بل وجعل محاسبتهم جهاداً يثاب المرء عليه بدليل قول الرسول ﷺ: ((أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)).

وعلى هذا فإن تاريخ الإسلام وواقعه يختلفان تمام الاختلاف عن واقع المسيحية وتاريخها. ولكن خطأ الكثيرين الذي حكموا على الإسلام بجرم ارتكبه رجال الدين المسيحي في عهود غابرة إنما يعود إلى جهل هؤلاء بالإسلام كرسالة تختلف بخصائصها ومضمونها عن خصائص المسيحية ومضمونها.

خصائص القومية العربية في طورها الأول:

من البديهي أن تعتمد الدعوات في قيامها على خصائص تجسّمها وتجسّدتها... والدعوة التي تعتمد على خصائص ذاتية ثابتة وعلى أصول عقائدية واضحة هي دعوة لن يكتب لها الحياة بل لا يصح حتى اعتبارها مجرد دعوة.

والحركة القومية العربية لافتقارها في طورها الأول إلى محتوى عقائدي واضح، ولاعتمادها على العاطفة القومية المشوبة كانت تائهة في متاهات مقفرة من التفسيرات (الهيولية) لخصائصها ومضمونها الفكريين، مما جعلها فريسة للاتجاه الماركسي.

إن مجموع الخصائص التي كان يعتمدها القوميون العرب كأساس أيديولوجي في الدعوة إلى القومية العربية ليست في الحقيقة سوى خصائص ثابتة ومشتركة لكل قومية من القوميات ولا يصحّ بالتالي اعتمادها كأسس عقائدية أو أصول، فلسفية في بناء حركي عقائدي معين.

بالرغم من ذلك، فإننا لا نجد بأساً من تناول هذه الخصائص ونقضها، ليس كصفات ثابتة من صفات القومية، بل كأسس عقائدية ومحتوى فكري كان يعتمده الاتجاه العروبي إلى عهد قريب، أي قبل احتياجه من قبل الفلسفة الماركسية وتبنيه الخط اليساري.

إن مجموع الخصائص التي كان يعتمد عليها القوميون العرب كأساس أيديولوجي في الدعوة إلى القومية العربية ليست في الحقيقة سوى خصائص ثابتة ومشتركة لكل قومية من القوميات ولا يصح بالتالي اعتمادها كأسس عقائدية أو أصول، فلسفية بي بناء حركي عقائدي معين.

بالرغم من ذلك، فإننا لا نجد بأساً من تناول هذه الخصائص ونقضها، ليس كصفات ثابتة من صفات القومية، بل كأسس عقائدية وكمحتوى فكري كان يعتمد على الاتجاه العروبي إلى عهد قريب، أي قبل احتياجه من قبل الفلسفة الماركسية وتبنيه الخط اليساري..

اللغة:

يعتبر فريق من القوميين اللغة أساساً من أسس الدعوة إلى القومية العربية وعنصراً من عناصرها وهم في ذلك متبعون لا مبتدعون فـ"فيخته"⁽¹⁾ يرى أن الناس يتكونون باللغة ويرى أن اللغة الجرمانية بكونها أقصى اللغات وأقلها تأثراً بغيرها جعلت الألمان أرقى الشعوب التي تحوي ألسنتها كثيراً من العناصر الدخيلة الأجنبية عنها.

والحقيقة أننا لا نستطيع إنزال اللغة هذه المنزلة لعدة وجوه:

أولاً: لو كان لها هذا التأثير القوي في صهر الناس وتكوينهم وتجنيسهم لحق على الأميركيين والإنكليز أن يكونوا أصحاب قومية واحدة طالما أن اللغة الإنكليزية هي لغة الشعبين، هذا بالإضافة إلى أن الشعب الأميركي مزيج من سلالات مختلفة نزحت من أوروبا عقب اكتشاف أميركا ومن جعلتها السلالة الإنكليزية فيه تكون وحدة أميركا وانكلترا ضرورة قومية في نظر القوميون بحجة أنهما يتشاركان في الجنس واللغة؟

إن اللسان الإنكليزي دخل أميركا بعد اكتشافها كما دخل اللسان العربي مصر وسائر البلاد التي افتتحها المسلمون... ولكن السبب الذي أدى

¹ - فيخته Fikhteh فيلسوف ألماني.

إلى صهر من تكلموا العربية وجعلهم أمة واحدة، وإلى بقاء من تكلموا الإنكليزية أمما متفرقة، إنما يرجع إلى الرسالة الإنسانية التي حملها العرب لا إلى اللغة العربية.

نعم لقد كان للغة العربية الفضل في نقل مفاهيم الإسلام وتعاليمه إلى كافة شعوب الأرض. فهي - أي اللغة - أشبه بالمركبة التي تنقل الإنسان من مكان إلى مكان ابتغاء السرعة وعدم استنفاد الجهد بالمسير، ولكن السيارة تبقى وسيلة لغاية وهي النقل كما تبقى اللغة العربية وسيلة لنقل رسالة الحياة الجديدة إلى كل قطر ومصر.

ثانياً: إن هناك دولاً كثيرة تتمتع بالسيادة والاستقلال الذاتيين وتتكلم أكثر من لغة. فسويسرا مثلاً تتكلم ثلاث لغات دون أن تتبنى واحدة منها. ولكن هذا لم يمنع من جودها كدولة تعد من أرقى دول العالم.

فإنزال اللغة هذا المنزل الضيق، واتخاذها خصيصة من خصائص القومية بخنق المفهوم الفكري الناهض المنطلق ويقعد بالمبادئ مقعد الأناية البغيضة، وينتحي بها ناحية الانعزالية المميتة.

ثم إننا في عصر أصبح كل شعب يتكلم لغات عديدة فلم تعد اللغة رابطة أساسية بين الناس، بل أصبح من الضروري التفتيش عن رابطة إنسانية أقوى من هذه الرابطة التي لم تمنع بعض متكلميها من أن يتّجروا بشعوبهم ويقدموها لقمة سائغة للمستعمرين.

التاريخ

ويهتف القوميون بالتاريخ عنصراً من عناصر القومية العربية والتاريخ الذي يعتبرونه عنصراً من عناصر قوميتهم ينقسم إلى حقتين "أ - حقبة سبقت ظهور الإسلام (الجاهلية).

ب - حقبة سارت مع الإسلام فعرفت به وعرف بها.

ونحن لا ننكر أن حضارات عظيمة ظهرت في الحقبة الأولى من التاريخ العربي. فحضارات الدول الشمالية ومنها دولة تدمر، وحضارات الدول الجنوبية ومنها دولة سبأ وحمير، سجلت في التاريخ القديم نبوغاً وتفوقاً في كثير من العلوم والفنون. فالدولة التدمرية لها آثار جلييلة في العمران وخاصة في الزخرفة والبناء والنقوش والكتابات. وقد تضمنت هذه النقوش عدة قوانين شرعية وتجارية. كما كانت دولة سبأ وحمير على جانب كبير أيضاً من التقدم الصناعي والزراعي والسياسي.

وأعظم ما عرف عنها هو بناء السدود للاستفادة من مياه الأمطار. كل هذا مما لا يجوز إنكاره بحال... ولكننا ننكر وجود أي دافع يشدنا إلى تلك الحضارات البائدة المنعدمة. فهل يعقل أن نتخطى حضارة الإسلام التي عرفت بها أمتنا طول أربعة عشر قرناً إلى حضارة لا نحس بدافع الالهفة نحوها ولا نشعر بنوازع الحنين إليها؟ ونحن في الوقت نفسه لا نجد أثراً من صلة تربط التاريخ الجاهلي بالتاريخ الإسلامي.

إن التاريخ كعنصر من عناصر القومية العربية يجب أن يكون أحد تاريخين. إما أن يكون تاريخ الجاهلية، وإما أن يكون تاريخ الإسلام. فإذا كان الأول أصبحت دعوى القومية العربية لا تمت إلى الواقعية بصلة لأن هذا التاريخ المنصرم لا علاقة له بحياتنا الحاضرة وليست له أية خصائص تجعلنا ننتسب إليه أو نحافظ عليه. وإذا كان الثاني أصبح من الضروري أن يكون الإسلام كرسالة أوجدت هذا التاريخ العنصر الأول والأخير الذي يجب أن تعتمد عليه القومية العربية في نهضتها الحديثة.

واستطراداً لما تقدم أقول: إما أن يكون تاريخهم إسلامياً فيكون بذلك عنصر التاريخ عندهم واقعياً... وإما أن يكون جاهلياً فتغدو دعواهم مستهجنة

خيالية لا مكان لها في وطن يعيش أهله بتاريخ الأمة الإسلامية التي كانت خير أمة أخرجت للناس.

الأرض:

وينادي فريق بالأرض عنصراً من عناصر القومية العربية. والواقع أننا إذا أردنا تحديد الأرض التي سكنها العرب منذ فجر التاريخ لأسقطنا من حسابنا عدداً من البلاد التي أصبحت عربية بعد الفتح الإسلامي فقط. فأرض العرب في الواقع على نوعين:

١ - نوع عربي: وهي الأراضي التي سكنها العرب منذ القدم فعرفت بهم وعُرفوا بها وتضم. شبه الجزيرة العربية وصحراء سوريا.

٢ - نوع مستعرب: وهو الأراضي التي افتتحها المسلمون وسكبوا فيها تعاليمهم ونشروا فيها لغتهم ونخص منها مصر وشمال أفريقيا. أما مصر فقد سكنها الفراعنة من عهد موسى ولم تتخذ وجهاً عربياً حتى افتتحها على يد عمرو بن العاص القائد المسلم.

وأما البلاد التي تمتد على الساحل الإفريقي الشمالي وتضم ليبيا والجزائر ومراكش وتونس فكانت معروفة قبل دخول الإسلام بأنها وطن البرابرة سكان البلاد الأصليين.

فأية أرض يعتبرها القوميون أرضاً عربية عريقة ومن ثم يعتبرونها عنصراً من عناصر قوميتهم؟ إذا كانت أرض شبه الجزيرة وهذه فقط التي تعرف بأرومتها العربية فقد سلخوا عن محيط دعوتهم مصر والمغرب العربي بل جميع البلاد الأخرى التي تعربت بعد الإسلام. وأما إذا كانت أرض العرب بعد الإسلام هي العنصر الأرضي الذي ينادي به القوميون فإن هذه الأرض لم تكن عربية قبل الإسلام وأصبحت عربية بعده. وبالتالي أصبح تاريخها تاريخه،

ومعتقداتها معتقداته، ورسالتها في الحياة رسالته فهي أرض إسلامية بحكم الواقع.

وإذا اعتبروا الأرضين معاً أرض القومية العربية فيعود فضل الإسلام يثبت لهم من جديد بأنه هو الذي مزج هذه الشعوب بخصائصه ومبادئه ومفاهيمه وما كان للأرض أو اللغة أو التاريخ من فضل في صهر هذه الشعوب. ولو كان لها هذا التأثير لاستطاعت أن توحد ولو سكان شبه الجزيرة قبل الإسلام، ولاستطاعت أن تجعل منهم أمة في الجاهلية.

ولا نكون مبالغين إذا قلنا أن فضل الإسلام على (العروبة والعربية) لا يمكن أن يدانيه فضل على مدار التاريخ سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها..
ولندخل في مناقشة الموضوع من الأساس...

أولاً: من المألوف أن الأمم والشعوب تتخذ لها أسماء جامعة تعرف بها نفسها أو تُطلق عليها من غيرها... فالرومان مثلاً هم الذين أطلقوا على سكان شمالي أفريقيا اسم (البربر)... والغاليون هم الذي سموا (الجرمان) باسمهم.
أما العرب فلم يكن لهم اسم جامعة أو تعبير قومي يُعرفون به قبل الإسلام.
وإذا اعتبرنا أن الشعر الجاهلي هو القاموس الجامع للتعبير المستعملة في تاريخ العرب قبل الإسلام فإننا نستطيع التأكيد بأن القاموس خلُو من أية صيغة اشتقت من كلمة (عرب) سواء في نطاق المفهوم القومي أو في نطاق المفهوم اللغوي...

ثانياً: كذلك يتأكد لنا من استعراض التاريخ الجاهلي انعدام الشعور لدى سكان الجزيرة بأنهم أبناء قومية واحدة، وأن العروبة هي قاسمهم المشترك على صعيد الجنس واللغة والمصالح المشتركة.

هذا الواقع التاريخي الذي يؤكد انعدام الشعور بالوحدة القومية عند العرب قبل الإسلام تثبته كثير من الوقائع والأحداث التاريخية نورد منها على سبيل المثال: أن عنتره الشاعر الجاهلي لم يجد في قاموس التعبير العربي

كلمة يمكنه بها أن يفصح عن الإحساس القومي الجامعة في مواجهة الفرس وقويتهم الديلمية، فلم يكن منه إلا أن قال في معلقته:

شربت بماء الدحرضين فأصبحت

زوراء تنفر عن حياض الديلم.

كذلك يروى أنه قدّم (قيس بن عاصم) وابن عمه (عمر بن الأَهم) على الرسول ﷺ. فلما صارا عنده تساباً وتهاترا. ثم قال قيس للرسول مشيراً إلى عمرو وقومه: (والله يا رسول الله ما هم منا وإنهم أهل الحيرة)... فرد عليه عمرو موجهاً خطابه إلى رسول الله ﷺ: (بل هم والله يا رسول الله من الروم وليسوا منا). فنهاهما الرسول عن هذا التلاحي وأفهمهما، أن الإسلام قد أغرق العصبية كلها.

ثالثاً: يتضح لنا من كل ما سبق أن الإسلام هو الذي سمى العرب باسمهم هذا.. وجاءت هذه التسمية ضمن نطاق المخاطبة والتكليف والوصف والتصوير في عدد من الآيات والأحاديث... ومن يوم أعطى الإسلام الواقع العربي المدلولات والتعابير الجامعة جرى استعمال واستخدام كل المشتقات من لفظة (عرب) في شتى المجالات الأدبية والسياسية...

ففي العام الثالث الهجري طالعنا الشعراء بنمط جديد من التعبيرات لم يسبق لشعراء الجاهلية أن استعملوها من قبل... يقول سعد بن مالك في وصف الرسول ﷺ:

بدا لنا فاتبعناه نصدقه

وكذبوه فكنا أسعد العرب.

وقال حسان بن ثابت يقَرع بني (هذيل) لما اشترطوا على الرسول أن يُحَل لهم الزنا ليعتنقوا الإسلام:

سألت هذيل رسول الله فاحشة

ضلت هذيل بما قالت ولم تصب

سألوا رسولهم ما ليس معطيهم

حتى الممات وكانوا سبَّ العرب.

رابعاً؛ إن الإسلام حين أعطى العرب هذه التعبيرات إنما كان يهدف إلى صياغة مفاهيم هذه الأمة التي اصطفها لحمل رسالة الإسلام... صياغة كلية كاملة متكاملة يتحقق بها تكوينها وخلقها على عين الإسلام وفي إطار مفاهيمه وتصورات.. ولم يكن القصد من ذلك أبداً إعطاء العرب مبررات الانعطاف على الخط الذي جاء به الاسم والانفصال عنه... وبالتالي تحميل هذه التعبير فوق ما تحمل من معان قومية لا يمكن لها إلا أن تكون إطاراً لمحتوى عقيدي، ولا غنى لها بنفسها عنها.

وليس أدل على ما نقول من الحرج الذي أصاب الاتجاهات القومية عند مواجهتها لغزو الفكر الشيوعي قبيل منتصف هذا القرن بقليل، حيث تهاوى المنطق القومي الفارغ أمام هجمات الفلسفة المادية الغازية... ثم ما كان منه (أي الاتجاه القومي) تحت تأثير الضغوط المختلفة إلا أن أسرع إلى تبني محتوى فلسفي ليقى به نفسه غوائل الضياع والشروء في مهامه ومتهاتت مقفرة من النظريات والتفسيرات القومية الشتى.

ولو بقي التلازم قائماً . كما كان من أول يوم . بين العروبة والإسلام وبين العربية الإسلامية، على اعتبار أن العروبة تجد الإسلام روحه، وأن كيان الإسلام محتواه، لو بقي التلازم على هذا النحو لما تهددت حصون العروبة من داخلها ولكانت بغنى عن أنت تستجدي العقل البشري منتجاته المشوهة المسوخة التي فشلت هي الأخرى في حمايتها، بل وساعدت على إعطاء الاتجاهات المادية الغازية مبررات التحدي لها والطمع بها والإغارة عليها. وبين عشية وضحاها أضحت بلادنا مرتعاً لذئبان، الشرق والغرب، ومسرحةً لتنافس المعسكرات الدولية والاتجاهات المادية.

وبذلك ضاعت معالم شخصيتها... وانقطعت صلتها بماضيها. وغدت شريدة طريدة تتلمس قوتها على مآذب أعدائها وتهرق في سبيل ذلك ماء وجهها ودماء حياتها...

كل ذلك لأن (العروبة) فقد بانفصالها عن الإسلام عناصر بقائها وعوامل قوتها ومؤهلات ريادتها، فكان أن أصابتها هذه الانتكاسة الأخيرة التي أفقدتها أسباب النجاح في دنياها وعوامل الفلاح في آخرها وذلك هو الخسران المبين؟ وأخيراً لا أخيراً بقي على دعاة العروبة أن يدركوا أن فضل الإسلام على العروبة والعربية فضل كبير بل وأكبر من أن يسعه حصر. فلولا الإسلام لما كانت هناك (عروبة) ولما كان هنالك كيان جامع للعرب.. فالإسلام هو الذي عربّ تسعة أعشار البلاد المعروفة اليوم بأنها عربية... وهو الذي حفظ على العرب لسانهم ورشحهم إلى الدنيا رواد حضارة وإنسانية.

فهل بعد هذا يُغمط الفضل وأهله؟

وهل بعد هذا يتنكر (العروبيون) للإسلام؟

إن هذا لهو العقوق الأكبر والكفران المبين؟

٤ - المصلحة المشتركة

وأما قولهم: إن العرب تجمعهم وحدة المصالح والآمال والآلام وإن هذا عنصر من عناصر القومية العربية، فهو قول قديم ومفهوم رجعي لم يعد له من هذا العصر أدنى قيمة؟؟

إن العالم اليوم يشهد من أقصاه إلى أقصاه ألواناً شتى من الاتحادات والتجمعات والتكتلات والمعسكرات بين دول لا تجمعها وحدة قومية، وإنما جمعتها المصالح المشتركة ووحدة الآلام والآمال...

إن أميركا وتركيا تشتركان في (ميثاق الأطلسي) مع تباينهما القومي. والسوق الأوروبية المشتركة دليل واقعي على أن المصالح المشتركة قد تعدد نطاق القوميات حتى غدت أو كادت تغدو ضرورة عالمية. إن المصالح المشتركة ووحدة الآمال والآلام غدت عامل جمع لقارة بأكملها كالوحدة الأفريقية مثلاً. ثم إن ما تجمعها المصلحة اليوم قد تفرقه غداً. وبذلك تفقد (خاصة) المصلحة المشتركة قيمتها كمرتكز أساسي للقومية العربية.

القومية العربية في طورها (الماركسي):

تكلّمنا في الفصل السابق عن القومية العربية في طورها البدائي الأول، أي قبل تحولها إلى حركة يسارية وتبنيها للفلسفة الماركسية كمنهج حياة... إن الفكرة القومية العربية انعطفت في الخمسينات والستينات من هذا القرن انعطافات خطيرة وجذرية بعد أن أحس دعائها بضحالة مرتكزاتها الفكرية، وبعد أن أخذت الاتجاهات (العقائدية) الغازية تشكل خطراً على المد والفكر القوميين.

لقد كان الفراغ الذي عاشته القومية العربية من حيث الفكر الفلسفي فرصة مناسبة للاجتياح الماركسي الذي تعرضت له، والذي أدى إلى سلسلة من الانشقاقات في الحركة القومية العربية إلى أن غدت حركة يسارية صميمة بل ومتطرفة..

وهذا ما يحتمّ نقدها كحركة ماركسية من خلال مناقشتنا السابقة للفلسفة الماركسية.

القومية العربية والمعنى التعصبي:

أما المعنى التعصبي للقومية فإنه مرفوض من الإسلام كما هو مرفوض من كل (فكر إنساني).

إن القومية سمة من سمات الجاهلية (كالقبلية والعنصرية والطائفية) والإسلام يأمر الناس بأن يلتزموا (الحق) مجرداً ويدوروا في رحى الحق أبداً.

لقد فرق (الحق المجرد) بين محمد بن عبد الله (العربي) وبين أبي جهل (العربي) كما جمع بين بلال (الحبشي) وأبي بكر (القرشي)..

إن مبررات التفاضل بين الناس في الإسلام ليس العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة، وإنما هي قيمة الإنسان وحقيقته الإنسانية (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. كلكم لأدم وآدم من تراب).

إن المواجهات العسكرية التي قامت في صدر الإسلام إنما كانت ابتداء بين العرب أنفسهم، خالفت بينهم المبادئ والمعتقدات فلم تفلح في جمعهم عصبية دم أو قومية عرق أو وحدة لغة..

من أجل ذلك حذر الإسلام من ضلال الدعوات التعصبية جمعاء فقال الرسول ﷺ: "دعوها فإنها منتنة"، وقال: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية".

وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ {الحجرات: ١٣}.

تأسست عام ٢٠٠٩

مؤسسة فتحي يكن الفكرية الإنسانية



كتب للمطالعة حول هذا البحث:

- ❖ القومية في نظر الإسلام تأليف محمد أحمد باشميل.
- ❖ العرب والإسلام تأليف أبي الحسن على الحسن الندوي.
- ❖ محمد والقومية العربية تأليف الدكتور علي حسني خربوطلي.
- ❖ نقد القومية العربية تأليف الشيخ عبد العزيز بن باز.

